الاتجاهات الحزبيّة في المجتمع الإسلاميّ

«منذ عصر الرسول حتّى خلافة بني أميّة»

فاطمة جمعة

دار الفكر العربي
بيروت

دار الفكر العربي
للطباعة والنشر
كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨
ص.ب : ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان

المقـــدّمة

ما اختلف المسلمون في أمر من الأمور ، اختلافهم في نظام الحكم وطريقة تطبيق هذا النظام في المجتمع الاسلامي . فهذا الاختلاف الذي شغل الحيِّز الأكبر من مسرح الحياة السياسية منذ وفاة الرسول مباشرة ، كان السبب الأساسي في انشقاق المسلمين على انفسهم وتفرقهم شيعاً وأحزاباً . وهذا ما عبَّر عنه الأشعري بقوله : « اختلف الناس بعد نبيهم ، صلى الله عليه وسلم ـ في أشياء كثيرة ضلّل بعضهم بعضاً وبرىء بعضهم من بعض ، فصاروا فرقاً متباينين واحزابا مشتتين ، الاّ أن الاسلام يجمعهم ويشتمل عليهم » .

وهذا الخلاف الذي نشأ بين المسلمين ، كان الدافع الأساسي الذي اطلع هذه الفرق المتباينة . ولا يخفى ان السياسية منذ وجودها كانت أداة تفرقة وخلاف . وهكذا كان فقد كثرت الأقوال وتعددت الآراء في صورة النظام وهوية القيمين عليه وذهب كل فريق من المسلمين في رؤيته للأمور مذهباً معيناً ، وكان لكل مذهب ، من العامة والخاصة شيعة تنادي به ، وتتعصب له وتبثه بين الناس سراً أو علانية حسب الظروف المؤاتية .

ومالبث الأمر أن تعاظم واتسعت الفجوات ، فتعددت الروايات ، واختلفت الأسانيد وكثرت الأحاديث عن الرسول (صلعم) لمناصرة النزعات السياسية التي كانت تتنافس آنذاك .

ولذلك فان أية دراسة تبحث في الاتجاهات الحزبية في المجتمع الاسلامي وخاصة منذ عصر الرسول حتى خلافه بني امية لمن ادق المواضيع واكثرها حساسية في التاريخ الإسلامي . ذلك أن موضوع نشأة الاحزاب السياسية الاسلامية قد تعرض له كثير من الدارسين والبحاثة وتناوله العديد من المؤرخين والنقاد ، وحاول كل واحد من هؤلاء ان يتوصل الى الحقيقة التاريخية في هذا المجال . ولكن نظراً لتشابك الاحداث والمؤثرات وضخامتها في هذه الفترة من تاريخ الدولة الاسلامية كان من العسير على اي باحث الالمام بمختلف النواحي والعوامل والاحداث التي في تلك الفترة أو دراستها بشمولية كافية .

على أنّ ما حدا بي للخوض في هذا الميدان الواسع هو التوصل إلى جزء من اجزاء الحقيقة التاريخية آملة في إضافة حلقة من حلقات تلك السلسلة التي تتكامل بمثل هذه الدراسات . واما ما استهواني في هذا الموضوع فهو التعامل مع فكرة الحزبية التي شغلت مسرح الحياة السياسية الإسلامية منذ وفاة الرسول (صلعم) ولا تزال حتى يومنا هذا ، تلك الفكرة التي تعتبر موضوعاً تتهيأ له الأرض الخصبة في كل مكان وزمان .

وقد حاولت في هذا البحث ان اتعرض لنشأة الحزبية السياسية ، وذلك بالعودة الى جذورها التاريخية المتمثلة بالعصبية القبلية التي تميزت بها نفسية العربي قبل الإسلام ، ثم تتبّعت مسارها مع نشأة الدين الاسلامي وتأثيرها بعد ظهور الاسلام ، ودورها في قيام الاحزاب السياسية التي انتجت الفرق الإسلامية فيما بعد .

وقد رافق هذه الدراسة شعور بلذة البحث والتنقيب اوجدته المسالك الوعرة والشائكة الناتجة عن تعدد المصادر التاريخية وما رافق ذلك من تضارب في الروايات أو تعارض في بعض الأخبار ، او تعاطف لطائفة دون غيرها ، او ميل لإثبات اتجاه معين . ولا يخفى ان اكثر هذه المصادر قد وضعت متأخرة بعض الوقت عن زمن الأحداث التي تؤرخ لها وكان من مراميها مناصرة الدولة الحاكمة ، ودعم سلطة

الحكام في احيان كثيرة .

لذلك كان لابد من توخي الدقة والموضوعية في اختيار الاحاديث والاخبار كما هو مفروض في أي بحث علمي ، وتغليب المنطق ، والابتعاد عن التأثيرات العاطفية والدينية والسياسية .

وتمشيا مع التسلسل التاريخي للأحداث قسمت الدراسة كما يلي :

الباب الاول : يتناول جذور الحزبية السياسية من خلال :

بلاد العرب قبل الاسلام ـ العرب وأنسابهم ـ النظام القبلي والعصبية القبلية .

الباب الثاني : يتناول ولادة الحزبية السياسية من خلال :

الاسلام وفكرة الحزبية ـ الخلافة ونشأة الحزبية السياسية .

الحزبية وأبعادها في عهدي ابي بكر وعمر .

الباب الثالث : يتناول وضوح الرؤية الحزبية من خلال :

الفتنة الكبرى وأبعادها الحزبية ـ صفين والاحزاب السياسية ـ نشأة الفرق الاسلامية. فعسى أن تحقق هذه الدراسة شيئا من ربط أواصر المحبة في هذه الفترة التي كثر فيها التناحر وتنوعت الأزمات وكادت الصراعات المتنوعة تتناول كل الشؤون الحياتية .

على أنّ هذه الدراسة المتواضعة لم يكن ليكتب لها الظهور إلى حيِّز الوجود لولا التشجيع الخيِّر والتوجيه المخلص والرعاية المباركة من المشرفة الكريمة الدكتورة زاهية قدورة ، فلها جزيل الشكر واطيب آيات المحبة والتقدير .

كما أخص بالشكر والتقدير الدكتور طريف الخالدي الذي بذل جهداً طيباً في الإرشاد والتوجيه لانجاز هذه الدراسة .

فاطمة جمعة

البابُ الاولُ

جذور الحزبية السياسية

فترة ما قبل الاسلام

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الاسلام

تمهيد :

لا بد للباحث في تاريخ نشأة الاحزاب السياسية في المجتمع الإسلامي من العودة الى تاريخ الشعوب العربية قبل الاسلام ، ومحاولة التعرف الى طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي عاشها العرب في الجاهلية اي العصر الذي سبق الاسلام ، ذلك ان نشأة تلك الاحزاب في المجتمع الاسلامي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظم والتقاليد من جهة ، ونمط الحياة التي مارسها العرب في الجاهلية من جهة ثانية . وقد بقي أثر ذلك واضحاً في المجتمع العربي حتى بعد ظهور الاسلام .

فالانسان ، في حياته الفردية ، والاجتماعية ، هو الى حد بعيد نتاج الماضي . وكل مشكلة من المشكلات التي تعترض حياته لها جذورها واسبابها البعيدة . فالمذاهب المتنافرة والعقائد المتناحرة التي تقسم الافراد والجماعات والامم وتدفع بهم الى العداء والتخاصم والتنازع ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باحداث الماضي .

فالعرب هم سكان شبه الجزيرة العربية ويطلق العلماء العرب عليها اسم

« جزيرة العرب »[1] .

« وشبه الجزيرة العربية ليس بين اشباه الجزر واحدة تضاهيها في المساحة فهي اكبر شبه جزيرة في العالم »[2] « وهي اقليم في الجنوب الغربي من اسية[3] » .

وقد حددها الهمذاني بقوله : « جنوبيها اليمن وشماليها الشام وغربيها شرم أيلة وما طردته من السواحل الى القلزم وفسطاط مصر ، وشرقيها عمان الى البحرين وكاظمة والبصرة وموسطها الحجاز وارض نجد والعروض »[4] .

والمقصود ببلاد العرب في هذا البحث الجزيرة العربية التي يحدها من الغرب البحر الاحمر ومن الجنوب البحر العربي ، ومن الشرق خليج فارس ، وهي تمتد في الشمال لتشمل بقاعاً قامت فيها دويلات عربية كالمناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام ومن قبلهم الانباط في بترا وتدمر .

« وبلاد العرب خمسة اقسام : تهامة ، الحجاز ، نجد ، العروض واليمن[5] » .

---

١ ـ ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٠ .
« وانما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع اقطارها » كذلك البكري يحددها بقوله : « سميت جزيرة العرب جزيرة لان بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة احاطت بها وهي ارض العرب وهدتها » .
البكري : كتاب معجم ما استعجم الجزء الاول المقدمة ص ٦ .
والهمداني يقرر : « وتسمى جزيرة العرب لان اللسان العربي في كلها شائع وان تفاضل »
الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١ .

٢ ـ حتي ، جبور : تاريخ العرب المطول ص ٢٩ .

٣ ـ Encyclopédie de l'islam, tome 1 P 555.

٤ ـ الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١ .

٥ ـ البكري : كتاب معجم ما استعجم الجزء الاول المقدمة من ص ٥ ـ ٥٩ . وقد اورد ياقوت في معجم البلدان تحديداً لكل قسم من اقسام شبه الجزيرة العربية .

تهامة : تساير البحر منها مكة ج ٢ ص ٤٣٧ .
الحجاز : او جبل السراة سمته العرب حجازاً لانه حجز بين الغور وهو تهامة وهو هابط وبين نجد ج ٣ ص ١٠١ .
=

على ان المنطقة التي يجري التركيز عليها بوجه خاص هي منطقة الحجاز ؛ فاهمية الحجاز تكمن في انها كانت قاعدة بلاد العرب التجارية والدينية ، كما غدت مهد الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية فيما بعد . فهذه المنطقة تقع على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشام ، وعلى هذه الطريق تقع مكة اشهر مدن الحجاز حيث جعلها عرب الحجاز قاعدة لتجارتهم[١] .

ويلي مكة من حيث الاهمية « يثرب » التي اطلق عليها فيما بعد اسم المدينة . وهي تقع شمالي مكة ؛ اشتهرت بمياهها وخصب اراضيها وقد سكنها العمالقة واليهود والأوس والخزرج . ويليها الطائف ذات المناخ الجميل ، وكانت مصيف الحجاز وقد سكنتها هوازن[٢] .

أمّا شهرة مكة ومركزها الكبير فيعود الفضل فيهما الى الحركة الاسلامية . غير ان ذلك لا يعني ان الاسلام خلق مكة من العدم . فلقد مرت قرون عدة على وجود هذه المدينة ، قبل ظهور الاسلام كما كان لها شأن خطير في دنيا العرب قبل مجيء الرسول .

تتمتع مكة بموقع جغرافي ممتاز فهي واقعة على خط القوافل الذي يربط بلاد الشام بسواحل المحيط الهندي فكانت محطة للوافدين من جنوب الجزيرة وللمتحدرين من شماليها . ولما كانت مكة في واد غير ذي زرع ليس فيها الاّ بئر زمزم ، لذلك استحال على سكانها الاشتغال بالزراعة فانصرفوا الى ممارسة

= نجد : اسم للارض العريضة التي اعلاها تهامة واليمن واسفلها العراق والشام ج ٨ ص ٢٥٣ .

العروض : سميت بذلك لانها معترضة في بلاد اليمن والعرب ما بين تخوم فارس الى اقصى أرض اليمن مستطيلة مع ساحل البحر . ج ٦ ص ١٦٠ .

اليمن : ما اشتمل عليه حدودها ما بين عُمان الى نجران ثم يلتوي على بحر العرب الى عدن وسميت اليمن الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزرعها والبحر يطيف بها من المشرق الى الجنوب ج ٨ ص ٥٢٣ .

١ _ Lammens, la mecque à la veille de l'Hegire P P. 116-118.

٢ _ Lammens, le berceau de l'islam P P. 9-76.

التجارة[1] . وقد سيطرت خزاعة زمناً على مكة الى ان قام في قريش قصي وهاجم خزاعة وانتزع منهم الزعامة. والى ذلك الحين كانت قريش مجموعة عائلات وبيوتات متفرقة تعيش في الاماكن المجاورة لمكة تؤمن عيشها من تربية المواشي[2] فقبيلة قريش كانت اشهر من سكن مكة وابوها النضر بن كنانة . وقد رأى بعضهم انها سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة .[3] وقد عرف القرشيون كيف يستغلون موقع مكة الممتاز وسرعان ما اصبحوا تجاراً ماهرين تجاوز نشاطهم حدود الجزيرة العربية . فقد كانت قوافل قريش معروفة عند العرب لانهم سكان مكة وحماة الكعبة التي يقدسها العرب ويحجون اليها . وقد كانت التجارة من اهم العوامل في اتصال العرب بمن حولهم من الامم وخاصة بالنسبة لقريش فلم يكن العرب قبل الاسلام امة منعزلة بل كانت على اتصال وثيق بالحضارات القائمة في جوارها من فارسية ورومية ومصرية . فالقرآن الكريم يذكر عناية العرب بسياسة الفرس والروم ويشير الى اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الامم . فسورة الروم تبتدىء بهذه الآيات « الم . غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصرالله ينصر من يشاء »[4] .

وفي سورة قريش « لايلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[5] شارة الى نشاطهم

---

١ ـ ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٤٢ .
« مكة مدينة في واد والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي . . . وليس بمكة ماء جار ومياهها من السماء وليست لهم ابار يشربون منها واطيبها بئر زمزم » .

وللتفصيل انظر : الازرقي : اخبار مكة ج ٣ ص ١٧ « ومكة تحيط بها جبال وسميت مكة لقلة مائها » .

٢ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ١ ص ١٠٣ (التقرش : التجارة والاكتساب) .
٤ ـ القرآن الكريم : سورة الروم الآيات (١ ـ ٥) .
٥ ـ القرآن الكريم : سورة قريش .

الاقتصادي واتصالهم بغيرهم من الامم . فقد كانت إحدى هاتين الرحلتين الى الشام وبلاد الروم ، والأخرى إلى اليمن والحبشة وبلاد فارس . وفي هذا الصدد يذكر ابن اسحق « وكان هاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف . . . ثم هلك هاشم بن عبدمناف بغزة من أرض الشام تاجراً . . . ثم هلك المطلب بردمان من ارض اليمن . . ثم نوفل بسلمان من ناحية العراق » .[1]

والى جانب الاتصال الاقتصادي كانت هناك سُبل عديدة لاتصال العرب بمن جاورهم من الأمم الاخرى ؛ منها إنشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم ، حيث تكونت إمارة الحيرة على تخوم فارس . وكان عرب الحيرة صلة الوصل بين الفرس وعرب الجزيرة ، « يحملون اليهم التجارة الفارسية ويبيعونها في أسواقهم ويبشرون بالفرس ومدنيتهم » . كذلك نشأت إمارة الغساسنة على تخوم الروم . وقد ساعدت البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب وتدعو الى دينها وتنشر تعاليمها على هذا الاتصال .[2]

ولكن التجارة لعبت الدور الاكبر والأهم في حياة العرب عامة وقبيلة قريش خاصة . فلم تكن الناحية المادية هي الوحيدة التي استفاد منها القرشيُّون الشيء الكثير ، بل كان هناك احتكاك بكل معنى الكلمة بين البيئة الجاهلية والمدنيتين الفارسية والبيزنطية ففُتحت امام قريش افاقٌ ظلت مغلقة في وجه كثيرين من العرب . وهكذا نرى قريشاً تسبق البادية مسافة كبيرة في حقل التنظيم ففيها منظمات كالمجالس الناظرة في امورها المتمثلة بدار الندوة التي لا تقضي قريش امراً من أمورها الآ فيها ، ولديها الوظائف كالحجابة واللواء والسقاية والرفادة .[3]

ولقد كان لمكة مكانتها الدينية الى جانب اهميتها التجارية . فقد كانت

---

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٤٧ و١٥٠ .
٢ ـ احمد امين : فجر الاسلام من ص ١٦ الى ـ ٢٧ .
٣ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٤١ .
وابن عبد ربه : العقد الفريد مجلد ٣ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

الكعبة في مكة بيتاً لآلهة قريش حتى قيل إنه « كان حول الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً »[1]. ويظهر ان السبب من وجودها ؛ « ان قريشاً رأت ان تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج فوضعت اصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة »[2] فقد كان الوثنيون يؤلفون السوادالاعظم من العرب. وقدزعم بعض المؤرخين« أن أول من غير دين اسماعيل عليه السلام ، فنصب الاوثان عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الازدي وهو ابو خزاعة »[3] « فلما صنع هذا عمرو بن لحي دانت العرب للأصنام واتخذوها »[4]. وقد اتخذ العرب لكل قبيلة ، بل لكل اسرة ، الهة خاصة بها . وكان يعبر عن هذه الآلهة العديدة رموز أهمها الأصنام . واقدم هذه الاصنام « مناة » وكانت العرب جميعها تعظمها . وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة يعظمونها . ثم اتخذوا « اللات » بالطائف والعزى ، وكانت اعظم الاصنام عند قريش . ثم « هبل » أعظم اصنام قريش في الكعبة . وكان لهم ايضاً « مناف » فيه كانت تسمى قريش « عبدمناف » . فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبي فأمر بهدمها .[5]

وفي القرآن الكريم ان مكة كانت مقر بيت الله الحرام منذ زمن ابراهيم واسماعيل ، ثم دنَّسَها العرب بالأصنام فجاء النبي وأعادها سيرتها الاولى .[6]

والى جانب الوثنية فقد انتشرت الديانة اليهودية في شبه الجزيرة العربية ، وذلك عن طريق البعثات التي كانت تفد الى الجزيرة وقد اعتنقت اليهودية قبائل

---

١ ـ الازرقي : اخبار مكة ج ١ ص ٧٦ .
٢ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٧٠ .
٣ ـ ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ص ٨ .
٤ ـ المصدر السابق : ص ١٣ .
٥ ـ المصدر السابق : ص ١٣ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٧ ـ ٣٢ ـ ٥٨ .
٦ ـ القرآن الكريم : سورة البقرة الايات ١٢٧ ـ ١٢٨ .
« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .

كثيرة فمهدت بذلك الطريق إلى الإيمان بالله الواحد . « وكان لليهود مستعمرات في تيماء ، وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى ، وفي يثرب وهي أهمها . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة » .(١)

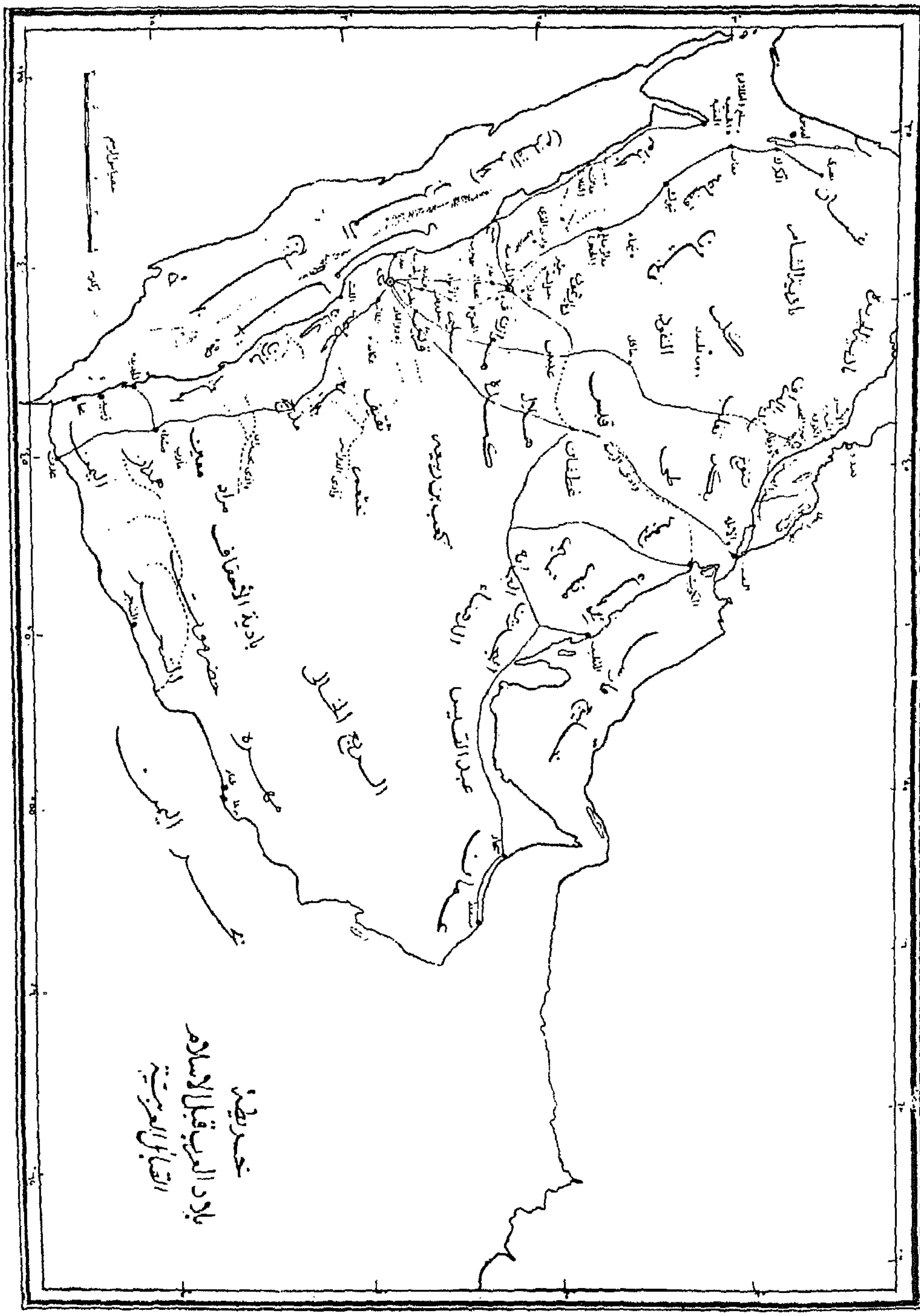
« اما النصرانية فقد تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة . فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام . كذلك كان هناك صوامع في وادي القرى » .(٢) واهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان « نجران » وهي بأوسط ارض العرب .(٣)

كذلك فقد كان في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام جماعة من اهل التوحيد ممن يقر بالبعث كقس بن ساعدة الايادي ورباب السبتي وبحيرا الراهب وكانوا من عبدالقيس(٤) .

وهكذا مع اطلالة الدين الجديد بدا التوحيد اليهودي والمسيحي كحجر اساس لانطلاق الدعوة الاسلامية ، لان العقلية العربية استطاعت ان تستوعب بعض المعطيات حول الله الواحد عبر التعاليم التي نشرها اليهود والمسيحيون . «ولكن الظاهرة المميزة للمجتمع العربي في العصر الجاهلي كانت القلق في التفكير والاضطراب في المعتقدات والعادات وتوثباً نحو السير والانطلاق تعتريه هزّات ورجات نتيجة لتفاعل اللغات والديانات والأقوام وتضاربها واختلاطها(٥) .

---

١ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٤ .
وللتفصيل انظر : Lammens, L'Arabie occidentale avant l'Hegire P P. 51-99
٢ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٥ .
٣ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ـ ص ٢٩ .
٤ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص : ٣٠٩ .
٥ ـ زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ، محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ص ٢٩٩ .


خريطة
بلاد العرب قبل الإسلام
القبائل العربية

أنساب القبائل العربية

(التي مهدت لقواعد الدولة الإسلامية ونشرت الدين الإسلامي)[1]

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الاوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الازد	سليح
اسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	وغيرها .
سليم	تيم الله	مراد	
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف		الاشعريون	
سعد بن بكر		لخم وكندة	
عامر ابن صعصعة			

١ ـ زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي مجلد ٢ جـ ٢ ص ٣٢٣ .

الفَصْل الثاني

العرب وانسابهم

ان الجماعات التي كونت المجتمع الاسلامي والأحزاب السياسية فيه كانت في غالبيتها من الشعوب العربية . لذلك لا بد لنا من القاء نظرة على تاريخ الشعوب العربية في الجاهلية ، أي قبل الاسلام والتعرف على طبقاتهم وانسابهم .

فقد اهتم العرب كثيراً بالأنساب حتى اننا لا نكاد نعرف أمة من الأمم عنيت بأنسابها عناية الأمة العربية بذلك ، ولم يكن للماضي الأثر الفعال في توجيه الحياة الاجتماعية والسياسية عند أمة من الأمم كالأمة العربية ، بحيث حاولت بعث ماضيها في حاضرها فالعناية بالأنساب كانت من اهم مظاهر العصبية القبلية .

اصل العرب وطبقاتهم :

العرب هم سكان شبه الجزيرة العربية ينحدرون من نسل سام بن نوح عليه السلام[1] فهم إذن أحد الشعوب السامية .

فقد ذكر السمعاني « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ولد نوح

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ١ ص ٢٠٦ .

ثلاثة : « حام ، وسام ، ويافث ، فولد سام العرب والروم وفارس والخير فيهم »[1] .

ويقسم مؤرخو العرب « العرب قسمين عظيمين : العرب البائدة والعرب الباقية »[2] .

« فالعرب البائدة : هم الذين بادوا ودرست اثارهم كعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وغيرهم .والعرب الباقية وهم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك ، من القحطانية ، كطيء ولخم وجذام ونحوهم ومن العدنانية كفزارة وسليم وقريش وغيرهم »[3] اما العرب الباقية فقد قسمها المؤرخون نوعين : « عرب عاربة وعرب مستعربة »[4] .

« فالعاربة هم العرب الأول ويقال فيهم : العرب العرباء ؛ وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح »[5] .

« فاما قحطان فكان أول من ملك اليمن وأول من سُلِّم عليه بـ « ابيت اللعن » كما كان يقال للملوك »[6] وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وبطون كهلان[7] . واليه ينتسب سكان يثرب قبل الاسلام من الأوس والخزرج .

« اما العرب المستعربة فيقال لهم المستعربة ، وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم . سموا بذلك لأن اسماعيل ، لما نزل جرهم من القحطانية تزوج منهم

---

١ - السمعاني : الانساب جـ ١ ص ٢٠ .
ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٥ .
٢ - القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٠٨ .
٣ - القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٠٨ .
٤ - المبرد : الكامل في اللغة والادب جـ ١ ص ٢٧٦ .
٥ - القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣١٥ .
٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ١ ص ٢٠٥ .
٧ - المصدر السابق جـ ١ ص ٢١١ .

وتعلم هو وبنوه العربية فسموا لذلك من المستعربة ، والموجودون من العرب من ولد اسماعيل عليه السلام كلهم من بني عدنان بن أدد »[1] .

فاما شعب عدنان فمهـده مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية ، او المضرية او القيسية واليه تنتسب قبيلة قريش[2] . وهكذا فقد جرى النسابون والمؤرخون على تقسيم العرب الباقية إلى أصلين كبيرين : القحطانية والعدنانية . وظل الرواة يتوارثـون هذا التقسيم كلما بحثوا في تاريخ العرب قبل الإسلام وفي موضوع الأنساب . ومما لا شك فيه « أن عرب الجاهلية كانوا يعنون بالأنساب عناية كبيرة لأنها كانت أحد أسباب الألفة والتنافر ودعامة من دعامات النظام السياسي . فالنسب هو الضامن والكفيل للحصول على حقوق المواطنية في المجتمع القبلي الذي تقوم منه القبيلة وفروعها مقام القومية والجنسية الآن »[3] فقد كان للنسب شأن خطير في حياة العرب وهو أمر ضروري جداً بالنسبة الى النظام الذي كان سائداًيومذاك ، وقد لمس النسابون شدة تعلق قبائل العرب بأنسابها واعتزازها باسلافها ومفاخرتها بأجدادها ، فوجهوا همهم إلى علم النسب ، وعنوا به عناية مسرفة وقد تناول العديد من الباحثين والمستشرقين موضوع الأنساب العربية وانقسام العرب إلى قحطانية وعدنانية ، بالبحث والتدقيق ، فتعددت في هذا الموضوع آراؤهم ونظرياتهم .

ومما لا شك فيه أن في القرآن الكريم آيات تشير الى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم : «فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم»[4] وقد ورد عن الرسول (صلعم) دعوته إلى معرفة الأنساب : « تعلموا من انسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة

---

١ ـ القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٣٦.والطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ١ ص ٢٠٤. والازرقي : اخبار مكة جـ٣ ص ٣٥ « يقال لبني اسماعيل العرب المستعربة.ويقال لجرهم وقحطان العرب العاربة والعرب العرباء » .

٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص ٢٧١ .

٣ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٢٢١ .

٤ ـ القرآن الكريم : سورة المؤمنون اية ١٠١ .

الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر »[1] ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لانقسام العرب إلى طبقات ولم يرد فيه اسم عدنان ولا قحطان ، وانما خاطبهم بلسان الرسول على أنهم من نسل اسماعيل وابراهيم « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير »[2] .

ويرجح أن وضع الخليفة الراشدي عمر لديوان العطاء كان أول تنبيه للعرب الى ضرورة العناية بانسابهم وتصنيفها وتدوينها ، ولا سيما أن بناء الدولة كان في ذلك الحين قبلياً ، ونظمها الادارية مستوحاة من هذا النظام القبلي .

فقد ذكر « ان الوليد بن هشام بن المغيرة هو الذي اشار على عمر بتدوين الدواوين وتجنيد الجند وفقاً لما رآه لدى ملوك الشام ، فاخذ عمر بقوله ، ودعا عقيل ابن ابي طالب، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم »[3] ولكننا لا نجد في الأخبار التي رواها الرواة عن فرض العطاء وعمل الدواوين ما يشير إلى انقسام العرب الى اصلين قحطانية او عدنانية « وانما اخذ بالقرابة من الرسول وبالسابقة في الاسلام وبالطبقات التي تستند الى أساس الغزوات والفتوح »[4] لذلك رأى بعض الباحثين « ان دعوى أهل الأخبار والأنساب بوجود أصلين للعرب : قحطاني وعدناني ، هي دعوى لا تستند الى دليل وان هذه التسمية عرفت في العصر الاموي بعد تحزب الخلفاء والحكومة والناس

---

١ - السمعاني : الانساب جـ ١ ص ٥ .

٢ - القرآن الكريم : سورة الحج اية ٧٨ . ولتفسير هذه الآية انظر : تفسير الطبري جـ ١٧ ص ٢٠٥ وما بعدها .

٣ - البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٦ والطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٢١٠ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٢٠٩ .

الى حزبين يمن وقيس او يمن ومضر او قحطان وعدنان [1] .

ففي العصر الأموي كانت كلمة « قيس » ترادف كلمة « مضر » و « معد » و « نزار »[2] وقد شجعت الفتن ، التي وقعت في ايام عثمان وفي عهد علي ومعاوية ، على ظهور العصبيات بين القبائل ، فتحزبت تلك القبائل ، وتكتّلت ؛ فكانت تحارب على أنها همدان او طيء[3] او مضر او ربيعة[4] او غير ذلك .

كذلك فقد ذهب جماعة من المستشرقين الى ان كلمة « نزار » لم ترد في الشعر الجاهلي المتقدم ، وانها وردت متأخرة جداً بالنسبة الى كلمة « معد »[5] .

وهذا ما دفع روبرتسون سميث الى اعتبار المنازعات السياسية في عصر بني امية من ابرز الدوافع لوضع الأنساب العربية . كذلك تجاور القبائل في الأمصار الجديدة والنزاع القبلي الحاد بين عدنان وقحطان في ذلك العصر[6] .

أما المستشرق بلاشير فيرى أن « الضرورات الإدارية والحوادث السياسية وهيبة السلطان ، منذ ولاية عمر بن الخطاب وزمن الامويين ، قد اقتضت تنظيم العلائق بين القبائل العربية ، فوجدت مهارة النسابين وعقولهم المنظمة مجالاً واسعاً للابتكار فاستطاعوا أن يصلوا بواسطة الجدود بين قبائل ليس لها من روابط سوى المجاورة ؛ كسُليم وذبيان ، أو روابط المنازعات الداخلية ، كعبس وذبيان . وكان من نتائج هذه التركيبات أن جمعت القبائل العربية المختلفة في الجزيرة في فرعين كبيرين : عرب الجنوب ، وعرب الشمال . »[7] .

---

١ ـ حواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

٢ ـ Encyclopedia of islam ,tome 2 P655

٣ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢ .

٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ١٨ .

٥ ـ Robertson Smith. kinship and marriage in early arabia P. 6

٦ ـ المصدر السابق ص ٧ ـ ٨ .

٧ ـ بلاشير : تاريخ الادب العربي جـ ١ ص ٢٢ .

كذلك فهو يرى « بعض الحالات التي خضع فيها النسابون لاعتبارات حزبية ، او عمل مأجور ، فظهرت أنساب تؤكد كلا الاصلين . ويعود هذا الشك الى العوامل السياسية »[1] . وهذا ما حدا بالمستشرق ليفي ديللافيدا في حديثه عن أصل نزار ، أن يشك في أن يكون لقبيلة نزار وجود حقيقي تاريخي ، وانما هو اختراع خيالي اختلق لأهواء سياسية ، وأن النزارية هي فكرة سياسية تبلورت في العصر الأموي ، في وسط ذلك الصراع الحزبي وعلى الأخص ما بعد معركة مرج راهط ، وانها لا تمثل حقيقة تاريخية ، فهي لا تعني قبيلة معيّنة ، ولا مجموعة قبائل أصول بعضها متباينة ، ولكنها كانت مع ذلك تجتمع كلها في معشر واحد هو معد .[2] .

ولكن بعض المؤرخين ومنهم دوزي «يذهب الى وجود كراهية شديدة بين كلب وقيس ، أخذت تنتقل من جيل إلى جيل رغم وحدة اللغة التامة والنظم والعادات والأفكار والدين ، بل رغم وحدة « الأصل »[3] . ولكن الروايات السابقة للإسلام لم تأت على ذكر شيء من ذلك ؛ فالحقيقة « ان الخصومة قد اشتدت بين قضاعة (كلب) وقيس أول الأمر ؛ لان قضاعة كانت متوطنة في الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة الى هناك »[4]ولكن العداء زاد بين قيس وكلب بوجه خاص في أيام معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم ، وذلك لان قبائل كلب ، بفضل مصاهرتها لمعاوية الذي تزوج امرأة من كلب ، هي ميسون بنت بحدل ، اصبحت مقربة عند الخلفاء ، مع ان الخلفاء من قريش وقريش من قيس . وكان من أثر ذلك ان غضبت قيس فانحازت الى تأييد ابن الزبير في نزاعه مع مروان بن

---

١ ـ المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة خزاعة بن عمرو وللمستشرق كرنكوف مجلد ٨ ص ٣٠١ ـ ٣٠٣ ومادة خثعم للمستشرق ديللافيدا مجلد ٨ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

٢ ـ Encyclopedia of islam tome 3 PP940 – 941

٣ ـ ر . دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا جـ ١ ص ٧٩ .

٤ ـ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٧٦ وللتفصيل في اخبار قضاعة انظر : المسعودي : مروج الذهب جـ ١ ص ٢٩٧ .

الحكم ، وقد عرفت معركة مرج راهط بأنها وقعت بين قيس وكلب ، وكلب من اليمن ، وقد انتصرت فيها كلب على قيس . فخلق هذا الانتصار حقداً كبيراً بين قيس وانصارها وبين كلب وانصارها من القبائل التي ادعت انها من اليمن[١] .
وهكذا امتزج الخصام القبلي بالسياسة العليا للخلفاء . وقد اسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد عبد الملك في هذا النزاع فكان بعضهم يؤيدون القيسيين إذا كانت امهم من قيس وكان اخرون يؤيدون كلبا او اليمن اذا كانت أمهم من اليمن وسار على هذه السياسة الولاة والعمال فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها الى معسكرين قيس ويمن[٢] . وهو ما يؤكده جولدتسيهر ، الذي يرجع اصول العداء بين عرب الشمال وعرب الجنوب الى المنافسة بين قريش والأنصار ، وهو يرى أن الحروب الأولى التي نشبت بين معد واليمن ، من إبداع مخيلة المتأخرين ويقول : « معد ومضر إنما هما الندان للأنصار ، فلما اشتدت العداوة بين القبائل بفعل التطورات السياسية وعقب وقعة مرج راهط انتشرت نزعة عقد الأحلاف انتشاراً كبيراً ، وانتهى الأمر بان انضمت تميم وقيس إلى حزب مضر الكبير . أما أزد فقد انحازت إلى سائر اليمنية الذين دخلت فيهم ربيعة (بكر) بخراسان ، ثم انضمت إليهم قضاعة الشامية (كلب) آخر الامر » .[٣] وكان أن تشكلت هذه الثنائية بين مضر (تميم وقيس) واليمن (أزد وربيعة) ، وطغت على سائر العصبيات ، وكانت المحور الذي يدور عليه العالم العربي كله في ذلك الحين .

ومما لا ريب فيه أن انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين او قيسيين ويمنيين له جذور اجتماعية واقتصادية ، تعود الى الفترة الجاهلية التي سبقت الاسلام . فعرب الجنوب او القحطانيون كانوا أقرب الى المدنية من العرب العدنانية ، لأن بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء ، من بلاد هؤلاء ، فنشأت منهم دول قديمة

---

١ - Encyclopedia of islam tome 2 P655

٢ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٣٤٠ .

٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ص ٤٢ .

أشهرها ممالك سبأ وحمير وكهلان[1] . فالقرآن الكريم يصف ما كان لسبأ من الحياة الزراعية المستقرة الناعمة ومن ضربهم في الأرض آمنين ، بقوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم اية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور »[2] .

أما العدنانيون او المعدّيون وهم أهل الحجاز وأهل الشمال ، فتغلب عليهم البداوة وعدم الاستقرار ، ويستنتج من أقوال علماء اللغة ان لفظة « معد » تعني الشظف في العيش والغلظة في المعاش والقشف[3] . وانها كانت تعني حياة بدوية بعيدة عن كل وسائل الحضر وترف أهل المدر ، وهذا ، بالنظر لأهل المدن والمستقرين ، نوع من الخشونة لا يحمد الإنسان عليه . « وقد وصفت ملابسهم بالخشونة كذلك تميزت عن غيرها . وقد جاء « عليكم باللبسة المعدية » اي خشونة اللباس »[4] .

وقد لحظ بعض الذين كتبوا في العصور الإسلامية عن العصر الجاهلي ، هذه الفروق في المجتمعات الجاهلية ؛ فقد ذكر ابن العبري « وأما حال العرب في الجاهلية فحال مشهور عند الأمم من العزّ والمنعة . وكان ملكهم في قبائل قحطان . . . واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : أهل مدر وأهل وبر ، فأمّا أهل المدر فهُم الحواضر سكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضّرب في الارض للتجارة . وأما اهل الوبر فهم قطان الصحارى ، وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هناك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم

---

١ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .
٢ ـ القرآن الكريم : سورة سبأ اية ١٥ .
٣ ـ الزبيدي : تاج العروس جـ ٢ ص ٥٠٣ .
٤ ـ المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٠٣ .

يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حل وترحال »[1] . وهكذا كان من أثر الاختلاف والتباين في طرق المعيشة أن انقسَم العرب إلى بدو وحضر . وفي كتب اللغة نجد ما يؤيِّد هذا التقسيم القديم الذي يرجع الى الجاهلية : « فالحاضرة والحضارة خلاف البادية والبداوة والبدو . والحاضرة والحضرة هي المدن والقرى والريف »[2] .

وقد يكون هذا الاختلاف في طبيعة الحياة العربية في الجاهلية وانقسام العرب الى بدو وحضر هو التقسيم الطبيعي الذي يستند الى اسس تاريخية « فالاختلاف بين الفرعين الكبيرين فرع القحطانيين او عرب الجنوب وفرع العدنانيين او عرب الشمال وكلاهما من اصل واحد (الاصل السامي) وان تباينا في اللهجة والحضارة ناتج عن التباين في طرق المعيشة واللهجات والحضارة أدى من ثم الى اختلاف في الشعور واختلاف في المصالح الاجتماعية والاقتصادية التي وسعت المنافسات آفاقها فيما بعد وجعلت هذا التباين الجزئي كأنه تباين في العنصر والجنس والوطن »[3] وإن انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين والعداوة التي كانت بين الفريقين انما يعود الى « النزاع بين الحضارة والبداوة »[4] .

« فالملاحظ ان غالبية من حشرهم النسابون في القحطانية هم من المستقرين الذين مالوا الى إنشاء حكومات مستقرة أو كونوا لهم إمارات ومن اهل القرى والمدن ، اما من حشروهم في العدنانية منهم من القبائل التي كانت تميل الى البداوة

---

١ ـ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٩٣ . « وقد قيل للاعراب اى البدو اهل الوبر لانهم يتخذون من الوبر بيوتا وقيل للمستقرين اي الحضر «اهل المدر» لان مبانيهم من المدر» ابن منظور : لسان العرب جـ ٣ ص ٤٥٤ كذلك فقد ورد عن الرسول قوله لقيس بن عاصم : هذا سيد اهل الوبر . الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٣٣ .

٢ ـ الزبيدي : تاج العروس مجلد ٣ ص ١٤٦ .

٣ ـ زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ـ محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ ، السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

٤ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ٦ .

او من القبائل البدوية »[1] فقد ازدهرت في جنوبي جزيرة العرب مدنيات قديمة وكان لليمن النصيب الوافر من التقدم والتطور فقامت في تلك الانحاء ممالك لا قبائل متفككة الأوصال[2]. كذلك قامت دولتا الحيرة وغسان ، وقد جرت العادة بتسمية رؤسائهما ملوكاً وقد كان للحيرة ولغسان هيبة كبيرة في نفوس العرب ، وهما على ما يذكر النسابون من قبائل اليمن اي القحطانيين[3] .

ونتيجة للنزاع الذي كان بين البداوة والحضارة رأى بعض الباحثين وجود عداء شديد بين أهل مكة وأهل يثرب أي المدينة قبل ظهور الإسلام ؛ فاهل يثرب وهم يمنيون كانوا أصحاب حضارة وملك ، وأما أهل مكة ومن والاهم فقد كانت البداوة غالبة عليهم فكان من الطبيعي تنازع الجماعتين[4] .

فقد كان العرب يحتقرون الزراعة ويرون أن حياة الرعي والتجارة جديرة بالرجل الحر ، فأهل مكة كانوا تجاراً ، بينما أهل المدينة زراعاً وهذا ما جعل الكراهية متأصلة بين القريتين ، ويقال إن الرسول رأى محراثاً في بيت رجل من أهل المدينة فذكر له « انه ما دخل دار قوم إلاّ دخلها الذل »[5] .

ومهما تكن الظروف والأحداث والمؤثرات التي أحاطت بانقسام العرب الى فرعين كبيرين ، وسواء صحت هذه الأنساب أم لم تصح ، فمما لا شك فيه أن الفترة الأموية هي التي شهدت التكتل الواسع النطاق ، حول محوري قيس ويمن كما اسلفنا ، وليس من المستبعد ان يكون هذا الانقسام في الفترة الاموية على الأقل يرتبط ارتباطاً وثيقا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية للعرب في الجاهلية وهي ما عبرنا عنه بالصراع بين الحضارة والبداوة . فقبائل اليمن كانت تؤثر الاستقرار واقامة

---

١ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٣٣٤ .
٢ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ١ من ص ٢٧٨ ـ ٢٨٧ .
٣ ـ المصدر السابق جـ ١ من ص ٢٨٧ ـ ٢٩٩ .
٤ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٣٣٣ .
٥ ـ صحيح البخاري : جـ ٣ ص ١٣٥ وابن خلدون : المقدمة ص ٧٠٢ .

الإمارات والممالك بينما قبائل قيس أو معد كانت تؤثر الغزو .

فقبيلة الأزد اليمنية لم تشترك في حروب الفتح التي قام بها الخلفاء الراشدون الاّ عهد عثمان وكانوا في خراسان أهم القبائل بعد قيس تميم[1] ، « بينما كان لتميم وهي من قيس شأن كبير في حروب الردّة بسبب ما قامت به المتنبئة « سجاح » وأن حملة خالد بن الوليد الشديدة على المرتدين أعادت تميماً إلى أحضان الإسلام ، فوجدت في الفتوحات الاسلامية التي أعقبت حروب الردة ما يرضي ميولها إلى القتال ، واتجه اكثر مقاتلة تميم بطبيعة الحال إلى فارس ، ثم إلى خراسان ، وقد اظهرت تميم في الفتوح ما عرفت به في الجاهلية من حب القتال . وليس من شك أيضاً ان التميميين وهم بدو أقحاح فطروا على عدم الانصياع للسلطان ، وكان لهم نصيب كبير في جميع الفتن التي نشبت في عهد الأمويين »[2] وقد وقعت وقائع دموية بين « ازد عمان » في البصرة وخراسان وبين تميم . كما استغل اعداء الحكم الاموي هذه الفرصة ، وسعوا لتوسيع شقة الخلاف ، وحرضوا شعراء الفريقين على المهاجاة ، وفي وسط هذه المهاجاة تمثلت فكرة « قحطان » و« عدنان » .

فلما نظم « الكميت » قصيدته التي تعرض فيها لليمانية انبرى « دعبل الخزاعي » للرد عليه وبان لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان بقوله :

هم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا[3]

كذلك فقد حاولت « القيسية » و« اليمانية » ضم اكبر عدد ممكن من القبائل اليها وهذا يظهر في تحير النسابين في اصول بعض القبائل . ومن ابرز الامثلة على ذلك قضاعة فقد « تنوزع في قضاعة أمن معد كان أم من قحطان ، فقضاعة تأبى ان

١ ـ دائرة المعارف الاسلامة ـ مادة الازد ـ مجلد ٢ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
٢ ـ المصدر السابق ـ مادة ـ تميم ـ مجلد ٤ ص ٤٧٧ .
٣ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٠٠

تكون من معد وتزعم أنها من قحطان »[1] .

ومهما يكن من أمر هذه الأنساب ، فإن العرب ولا سيما متأخريهم ، اعتنقوها وبنوا عليها عصبيتهم ، وانقسموا في كل مملكة حلوا بها إلى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا في نسبهم ؛ واصبحت هذه العصبية مفتاحاً نصل به الى معرفة الكثير من أسباب الحوادث التاريخية .

---

١ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ١ ص ٢٩٧ .

الفَصل الثالِث

النظام القبلي والعصبية القبلية

عرف العرب النظام القبلي منذ اقدم عصورهم ، فهذا النظام كان يسود بلاد العرب كلها ، وكان ملائماً لطبيعة بلادهم التي يغلب عليها الجفاف وتنتشر فيها الصحاري والبوادي . فالعرب سواء عاشوا بدواً ام حضراً كان النظام القبلي هو الذي يجمع بينهم . ونقصد بالنظام القبلي ذلك النمط من الحياة ، التي تتوزع فيها الامة الواحدة الى جماعات بشرية مستقلة يجمع بين افرادها صلة النسب المشترك سواء كان هذا النسب حقيقيا او وهمياً .

ونظراً لاهتمام العرب بقضايا النسب كان لا بد من ضبط التسلسل القبلي . ولكننا بالرغم من ذلك نلمس بلبلة في التنسيق بين طبقات القبائل العربية .

فقد رتب علماء الأنساب قبائل العرب في مراتب هي : « شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم فصيلة »[1] « فالشعب هو النسب الأبعد كعدنان . والقبيلة مثل ربيعة ومضر والعمارة مثل قريش ، والبطن مثل عبد مناف والفخذ كبني هاشم وبني أمية والفصيلة مثل بني العباس »[2] فالشعب يتقدم القبيلة كما جاء

---

١ ـ السمعاني : مقدمة الانساب ص ١٨ .
٢ ـ القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

في القرآن الكريم في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[١] .

اما ابن الكلبي فقد جعل مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل[٢] وهناك ايضاً « الحي وهو البطن من بطون العرب ويقع على بني اب ، كثروا او قلوا وعلى شعب يجمع القبائل »[٣] « والرهط قوم الرجل وقبيلته »[٤] .

فالقبيلة كمجموعة، تربط بين ابنائها روابط اقتصادية وعاطفية تجعل منها وحدة اجتماعية . وتمثلها ، في الأصل جماعة ينتسب جميع افرادها الى جد مشترك . ويعتقدون ان رابطة الدم الواحد تجمع بينهم[٥] . ولكن هناك من يعتقد « ان القبيلة ليست اولى الخطوات لتكوين الجماعة البشرية بل سبقتها الاسرة »[٦] والاسرة كانت اول وحدة بشرية نظامية واضحة المعالم بسيطة التركيب متكاملة الوظائف يشكل افرادها فيما بينهم صورة مصغرة عن الحكومة ، حتى اذا اجتمعت عدة اسر لاسباب مختلفة كانت القبيلة . وكان على كل عضو في ذلك المجتمع القبلي ان يتبنى عقيدتها . تلك العقيدة التي تتجلى في الذود عن سلامة القبيلة ، والحرص على كيانها وتوفير اسباب المعيشة والبقاء لمن ينتمون اليها . وهكذا فقد كانت المصلحة المشتركة هي التي تجمع بين افراد القبيلة الى جانب الاعتقاد بوحدة النسب والدم . وكانت كل قبيلة تنظر الى سائر الجماعات القبلية المحيطة بها نظرتها الى منافس يزاحمها على موارد الحياة واسباب الرزق . ولا يخفى ان النظام القبلي كان ملازماً للبداوة . فالبداوة كانت الغالبة على العرب في الجاهلية ، يحددها حل وترحال متواصلان طلباً للماء والكلأ ، لذا كان البدوي معرضاً للازمات الاقتصادية الخاضعة للعوامل الطبيعية في بيئة صحراوية معرضة دائماً للتقلبات المناخية . وقد سببت هذه الازمات

---

١ ـ القرآن الكريم : سورة الحجرات اية ١٣ .

٢ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد مجلد ٣ ص ٣٣٥ .

٣ ـ الزبيدي : تاج العروس مجلد ١٠ ص ١٠٥ .

٤ ـ المصدر السابق مجلد ٥ ص ١٤٤ .

٥ ـ حتي : تاريخ العرب المطول ص ٥٥ .

٦ ـ بلاشير : تاريخ الادب العربي جـ ١ ص ٢٤ .

على تواليها هجرات عدة حملت البعض على القول بان الجزيرة العربية مهد الهجرات السامية جميعها[١] . ومن مظاهر هذه الحركات القبلية الواسعة انتشار القبائل العربية من يمنية وغيرها في الديار الشامية قبل الفتح الاسلامي . وكان البدوي لا يلجأ الى هذه التنقلات البعيدة المدى الاّ عند الضرورة القصوى ، وهو يميل اجمالاً الى سد عجزه الاقتصادي محلياً . ولذلك كان يعمد الى الغزو . تلك الخاصة التي لازمت البداوة في اجلى مظاهرها عرفت « بايام العرب »[٢] .

« فلقد قضت احوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو الى مرتبة يقرها النظام القومي . فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية »[٣] . ولكن البيئة والظروف الاجتماعية التي أحاطت بالعرب قبل الاسلام لم تساعدا على قيام نظام اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي سليم . فالحياة الجاهلية هي مزيج من النظام والفوضى وبالرغم من أن البدوي متمسك أساساً بالحرية إلى درجة الفوضوية ، وقد نشأ بعيداً عن كل نظام ؛ ومع انه فردي النزعة مفرط في الأنانية فإن بعض الباحثين « يظلمون البدوي حين يزعمون أن الروح الفردية تمكنت منه الى حد تعذر معه السمو الى مرتبة الإنسان الاجتماعي المعروف بنزعة الأممية واننا لا نجد عنده صفات الولاء والاخلاص والتضحية في سبيل المصلحة المشتركة »[٤] . على أن فردية العربي لم تطغ على ولائه لجماعته وكان رائده ابداً السعي لما فيه خير جماعته ومنفعتها . فهذه الفردية تذوب في أغلب الأحيان أمام النزعة القبلية . ومن هنا يظهر التناقض العجيب في خلق البدوي . فهو على فرديته المسرفة لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل جماعته[٥] . فانتساب البدوي الى مجتمع بشري ولو بدائي كان لا بد ان ينتج عنه نشوء بعض العادات . وطبيعي ان يصبح لهذا العرف القبلي

---

١ ـ حتي : تاريخ العرب المطول ص ٣٨ .
٢ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ١٣٣ .
٣ ـ حتي : تاريخ العرب المطول ص ٥٣ .
٤ ـ Lammens. Le berceau de L'islam P 187
٥ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٢٠٨ انظر خبر قيس بن مسعود الشيباني يوم ذي قار .

سلطة معنوية تختلف قوتها باختلاف رقي المجتمع وحاجاته . فالمجتمع القبلي لم يكن فوضوياً كما يتبادر الى الذهن ، بل فيه مظاهر كثيرة من الأنظمة المتطورة ؛ فكانت كل قبيلة توكل أمر الإشراف على شؤونها وسياستها إلى مجلس مؤلف من رؤساء الأسر ، ومن رؤساء الرهط ، تبعاً لمقياس القبيلة[1] والى هذا المجلس تعود مناقشة جميع القضايا التي تهم القبيلة[2] . فقد كانت رياسة القبيلة في اهل العصبية والجاه « ذلك أنه لا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة ، لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع »[3] . واذا تساوت العصبيات في جماعة قدموا أكبرهم سناً ، واذا اشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدو إلى الاقتراع[4] وهذا ما يجعلنا نطلق صفة الديموقراطية على المجتمع العربي[5] ، ولكنه لا ينبغي ان ننسى أن شبه الجزيرة العربية قد عرفت انظمة عديدة للحكم ، وهي اشد تعقيداً من نظام القبيلة ، واقرب الى التكوين التام للدولة ، تجلت في صورة الامارات او الممالك العربية التي اقامها المناذرة والغساسنة ، والكنديون ، ثم قريش في مكة التي تمكنت استناداً الى مكانتها الدينية ووجود الكعبة فيها من ان تحيط نفسها ببعض نظم سياسية ودينية جعلت منها شبه حكومة مستقلة . فقد جمعت مناصب عديدة ، أهمها الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء . واستمرت هذه المناصب تتزايد حتى اصبحت قبيل الاسلام بضعة عشر منصباً هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد فوزعتها قريش على بطونها[6] وبذلك تكون قريش بفضل هذه المناصب قد جمعت بين السياسة والدين والإدارة والحرب ، في قبيلة واحدة . ولكن كل ذلك لم يغير كثيراً في جوهر النظام القبلي .

---

١ ـ « واما احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة » ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٤ أنظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١ .

٢ ـ زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢٥ .

٣ ـ ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣١ .

٤ ـ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي جـ ٤ ص ٣٠٧ .

٥ ـ بلاشير : تاريخ الادب العربي جـ ١ ص ٣٥ .

٦ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

ومهما اختلفت الانظمة والتقاليد والأعراف التي سادت شبه الجزيرة العربية في الجاهلية ، فإن الطابع الغالب ظل الطابع القبلي وبقيت الروح القبلية هي المسيطرة .

« فافراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على سواهم . إذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته ، واذا غنم فهي للقبيلة خيرها . وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ الى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها .

فوطنية القبيلة وطنية قبلية لا وطنية شعبية . وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعصبية »[1] .

فوحدة القبيلة لا يمكن إرجاعها إلى صلات القربى وحدها ، أي رابطة الدم الواحد الذي يجري في عروق جميع أفرادها ، فثمة رابطة اخرى تجمع بين ابناء القبيلة تلك هي الحاجة لتجاوز مشكلات الاستقرار الداخلي والدفاع عن النفس عند الجماعات البدوية التي تعيش في وضعية توتر وصراع دائمين ، وذلك بسبب نمط الحياة الخاص بالمجتمع البدوي ، فالاستقرار الداخلي يستلزم التوصل إلى أفضل صيغة ممكنة لإقامة لحمة داخل المجموعة تضبط الصراعات والتنافسات بين أفرادها . وهكذا كان نشوء العصبية .

العصبية : لغويا واجتماعياً وسياسياً

تترافق كلمة « العصبية » مع تفسير شائع يجعل منها مرادفاً للتفرقة وتعبيراً عن تغليب مصلحة فئة ما على مصلحة الجماعة ككل . بينما تشير عبارة « الدين » إلى معان توحيدية تعكس عملية تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفئات او الأفراد

---

١ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ١٠ .

الذين يشكلونها . فالعصبية دليل انقسام والدين دليل وحدة . وقد درج العرب بعد الاسلام على استعمال كلمة العصبية في كل مرة يراد الاشارة فيها الى الصراعات الداخلية المستهدفة نتائج سلبية بالمقارنة مع الاستقرار الداخلي العاكس لوضعية ايجابية . لذلك اخذ العرب يستعملون كلمة « عصبية » للدلالة على التنازع والفرقة والاعتداد بالانساب وذلك في مقابل « الدين » الذي يدعو الى الوحدة والتآخي وتآلف القلوب . لقد استقر في اذهان الجميع بعد الإسلام أن العصبية دعوة مفرقة تقوم على تناحر فريق ضد آخر في حالة النزاع والخصام ، مما يذكي نار الفتنة ويشعل الحرب بين القبائل . ولم يكن هذا التناحر العصبي او النصرة القبلية يستهدف دائماً اقرار الحق ، او انصاف المظلوم ، بل كان يستهدف مؤازرة المتعصب له سواء كان ظالماً او مظلوماً[1] .

إن هذا القول يتماشى مع التفسير اللغوي الذي اعطاه ابن منظور للعصبية والتعصب . ففي لسان العرب « العصبية ان يدعو الرجل الى نصرة عصبته ، والتألب معهم على ما يناوئهم ظالمين كانوا او مظلومين »[2] . ومقابل هذا التفسير اللغوي للعصبية فهناك عدة تفسيرات وتحديدات قديمة وحديثة ومعاصرة لمفهوم العصبية .

فحين يتحدث الماوردي عن العصبية يهمل المصطلح اللغوي مستعملاً عبارة « الالفة الجامعة » في سياق تفسيره وتصنيفه للعوامل الداخلية التي على أساسها تتماسك الجماعة وتتوحد وتؤمن امكانات المواجهة .

يبدأ الماوردي شرحه للألفة الجامعة محدداً اسبابها : « الدين ، النسب ، المصاهرة ، المؤاخاة بالمودة والبرّ » . ثم يعرفها قائلاً « فلأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة ، فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً ، تخطفته أيدي حاسديه ، وتحكمت فيه

---

١ ـ محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ص ٢٥١ .

٢ ـ ابن منظور : لسان العرب ص ٦٠٦

العصبة : الاقارب من جهة الاب لانهم يعصبونه ويعتضب بهم اي يحيطون به ويشتد بهم .

أهواء أعاديه ، فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة ، فإذا كان آلفاً مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديه وامتنع عن حاسديه فسلمت نعمته منهم ، وصفت مدته عنهم ، وان كان صفو الزمان عسراً ، وسلمه خطراً »[1] .

ولكي تقوم الألفة الجامعة بمهام الأمن داخل الجماعة والنصرة ضد اهواء الأعادي يحدد الماوردي مقوماتها الداخلية التي على اساسها يتم التآلف والتناصر . ومن هذه المقومات يحتل الدين والنسب والمؤاخاة اهمية ملحوظة[2] .

« فالنسب وهو الثاني من أسباب الألفة فلأن تعاطف الأرحام وحميَّة القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب »[3] .

أي أن النسب ليس مجرد ارتباط دموي - وراثي وانما ايضاً قوة تضامنية داخلية في الجماعة تؤمن شروط التناصر والألفة في مواجهة استعلاء الأباعد وتسلط الغرباء .

وهذا ما يفسره ابن خلدون الذي يُعتبر وحده كفيلاً بتقديم تعريف واضح للعصبية ، يبرز قوانينها الداخلية ودورها التاريخي . فابن خلدون يقدم تعريفاً مهماً للعصبية ويعلل قيامها على النسب فيقول : « ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب ، او ما في معناه ذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلاّ في الأقل وفي صلتها النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالها ضيم او تصيبهم تهلكة ، فإن القريب تجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا »[4] .

كذلك فالعصبية وليدة ضرورة من ضرورات حياة ابناء المجتمع القبلي « لان

---

١ - الماوردي : ادب الدنيا والدين ص ١٤٨ .
٢ - المصدر السابق ص ١٤٩ .
٣ - المصدر السابق ص ١٥٠ .
٤ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٥ .

اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكِنّ والدفاءة ، انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلْغَة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك »[١] اذ لا بقاء للقبيلة الاّ بعصبيتها تصون القبيلة كيانها عن طريقها وتذود عن حماها وترعى مصالحها في مجتمع تسوده شرعة تنازع البقاء فهي كما يقول ابن خلدون : « نتيجة للحياة التي يحياها الإنسان ، ولذا نرى الطابع الذي يطبع الحياة العربية هو هذه النزعة التي اقتضاها نكد عيشهم وشظف أحوالهم وسوء موطنهم وتنقلهم من بقعة لأخرى فخلقت هذه الحياة بينهم الفاً وتعصباً »[٢] .

أما دور العصبية في المجتمع القبلي فأساسي ، يكسب القبيلة القدرة على دفع عدوان غيرها من القبائل ومنه تستمد القدرة على العدوان على غيرها من القبائل « ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الاّ اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نصرة كل احد على نسبه وعصبيته اهم »[٣] .

الاّ ان القبيلة في المجتمع العربي لم تستطع المحافظة طويلاً على وحدة الدم ولحمة النسب لانضمام أشخاص آخرين إليها عن طريق الولاء والاستلحاق والاسترقاق والحلف ونحو ذلك ، فلم تعد القبيلة تمثل وحدة مثالية متجانسة ، وعلى الرغم من ذلك ظلت العصبية القبلية قائمة فيها . وهذا ما يحاول ابن خلدون تفسيره فيرى « ان نصرة كل احد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قريبا منها »[٤] .

واكثر الباحثين من العرب والمستشرقين الذين تناولوا العصبية في ابحاثهم ، فسروها تفسيرات تلتقي مع الخطوط العريضة لمفهوم العصبية عند ابن خلدون وتدور

---

١ ـ ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠ .
٢ ـ المصدر السابق ص ٢٢٧ .
٣ ـ المصدر السابق ص٢٢٤ .
٤ ـ المصدر السابق ص ٢٢٦ .

بشكل اساسي حول الانتماء ، التضامن والوحدة داخل الجماعة : فأحمد عبد السلام يعرف العصبية بقوله انها « سنة الحياة البشرية لا يستقيم مجتمع بشري الاّ بها ولا يخلو منها مجتمع مهما اغرق في البداوة فالعصبية ظاهرة حياتية لازمت المجتمعات البشرية من يوم وجدت على ظهر البسيطة »[1]

وزاهية قدورة رأت في العصبية « صفة من مستلزمات وجود الانسان ، فما دام الانسان انساناً يحب ويكره ويأمل ويطمح وما دام كائناً مضطراً الى الكفاح والصراع ليسد حاجاته ويضمن بقاءه فهو مضطر الى أن يتعصب »[2] .

ومحمد عابد الجابري يتحدث عن العصبية معتبراً اياها « رابطة اجتماعية وسيكولوجية شعورية ولاشعورية معاً ، تربط افراد جماعة ما قائمة على القرابة ، ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد : كأفراد او كجماعة »[3] .

والمستشرق ايف لاكوست يعتبر « ان العصبية ليست حالة وانما هي سياسة »[4] وهو يرفض اعتبارها رابطة دموية مشيراً الى ان « التضامن القائم على روابط الدم ليس العصبية وانما هو شرط لتمكين العصبية من أن تتطور »[5] .

وهو بعد ذلك يعطي العصبية دوراً طبقياً فيقول : « ان العصبية ليست التضامن الاجتماعي بوجه عام ، وانما هي شكل دقيق جداً من اشكال التنظيم السياسي . . . والعصبية كذلك ليست التضامن القبلي الوحيد ، ولا الابقاء الوحيد على روابط الدم ، انها تتعلق بحالة معطاة للبُنى السياسية القبلية والاجتماعية ، وهي

---

١ - احمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ص ١٠٦ - ١٠٧ .

٢ - زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ السنة الثامنة النشرة السادسة (ص ٢٩٥) .

٣ - محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ص ٢٥٤ .

٤ - ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون ص ١٣٥ .

٥ - المصدر السابق ص ١٣٦ .

حالة تتعلق بمستوى معين من التطور الاقتصادي »[١] .

هذه بعض الآراء والنظريات في تعريف العصبية قديما وحديثا وان ما يهمنا هو « العصبية القبلية التي كانت تسيطر على العرب في جاهليتهم وهي وحدها التي تعين الفلك الذي تضطرب فيه حياة البدو فهي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل »[٢] « فقد قام النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية على العصبية التي تبلغ ذروتها في العصبية للقبيلة . والعصبية القبلية هي القومية بالقياس الى العرف البدوي »[٣] وهي تذكرنا « بالنزعة الوطنية المتطرفة في النظام السياسي الحديث »[٤] .

فكما ان القومية المتطرفة تتعصب لجنسها وتؤمن بتفوقها على سائر القوميات فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة . فكل قبيلة تتعصب لجنسها وتؤمن بتفوقها وفضلها على سائر القبائل[٥] وقد تتوسع هذه العصبية حين تتحالف جماعتان او اكثر ولا يكون الدافع الى هذا الحلف شعوراً قومياً مشتركاً وانما شعور بالحاجة الى تأليف جبهة قبلية موحدة تقف في وجه القبائل الأخرى في مجتمع تسوده شرعة تنازع البقاء . فالدفاع عن النفس ودرء الخطر الخارجي الذي يهدد القبيلة كلها بمجموع افرادها وعصبياتها الصغيرة الداخلية كان في أساس ولادة العصبية القبلية .

فالدوافع لتكون الأحلاف لم تكن ناشئة عن حسّ داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة لذا كان امد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح .

---

١ ـ ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
٢ ـ كارل بروكلمان : تأريخ الشعوب الاسلامية ص ١٧ .
٣ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٤ ص ٢١٢ .
٤ ـ حتي ، جبور : تاريخ العرب المطول ص ٥٦ .
٥ ـ حدثني شيخ من الازد ثقة عن رجل منهم انه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لابيه فقيل له الا تدعو لامك فقال انها تميمية . وهذا من التعصب القبلي .
المبرد : الكامل في اللغة والادب جـ ١ ص ١٩٨ .

ويحدد البكري الهدف من قيام تلك الأحلاف بقوله : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ والتماس المعاش في المتسع وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »[1] .

ولكن المصلحة كانت تقضي في بعض الأحيان تحالف قبيلة مع جماعات أخرى غريبة عنها ، على قبيلة تربطها بها رابطة النسب[2] كتحالف بني ذبيان وبني أسد على بني عبس أخوة ذبيان يوم الهباءة[3] .

وقد ظهر في مكة نوع جديد من التضامن المبني على أساس المصلحة التجارية تتجلى في الأحلاف كحلف المطبين ولعقة الدم وحلف الفضول وغيرها[4] .

ويبدو ان هذه التحالفات والتكتلات القبلية في مكة وبين فروع قريش قد استمرت في تطورها في عصر الرسول وتركت اثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الاسلام وبعده . « فهذا الوضع الذي كان يتقلب بين النزاع والتحالف كان التربة الخصبة التي نبتت فيه العصبية القبلية وترعرعت وهي ابرز مميزات المجتمع العربي حينذاك شأنه في ذلك شأن كل مجتمع قبلي »[5] فظهور العصبية في المجتمع الجاهلي كان يلبي حاجة كامنة في نفس العربي ويروي ظمأه الى التعلق بمثل اعلى يعيش من اجله ويعكس توقه الى عقيدة يبذل دمه في سبيلها ، فكانت العصبية القبلية صدى هذه الحاجة وتجسيداً لها .

---

١ ـ البكري : معجم ما استعجم المقدمة ص ٥٣ .
٢ ـ زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ـ محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ ـ السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ص ٢٩٧ .
٣ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٢٤١ .
٤ ـ ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ١٤٣ .
٥ ـ زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ـ محاضرات الندوة اللبنانية سنة ١٩٥٤ السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ص ٢٩٧ .

واتخذت العصبية لدى القبائل العربية مظاهر مختلفة لجهة ضيق حدودها او اتساعها ، فقد كانت ضيقة الحدود عند نشوب الحروب بين بطون تمت الى قبيلة واحدة على رغم شعورها بوحدة نسبها ، فكانت العصبية للرهط او البطن تطغى على العصبية الجامعة للقبيلة ومنها تلك الحروب التي نشبت بين بطون بني عدوان وكادت تؤدي الى فناء هذه القبيلة [1] . وكانت حدودها تتسع كالعصبية لقيس كلها او لمضر او لربيعة ، وكذلك العصبية الشاملة لعدنان او لقحطان التي لم تعرف في العصر الجاهلي . ذلك ان هذا العصر لم يشهد التكتل الواسع النطاق حول محور قيس او مضر او ربيعة وانما ظهرت بواكير ذلك مع الاسلام في نزاع مكة والمدينة وتبلورت واتضحت معالمها عند وقوع الخلاف بين المسلمين ايام علي وبلغت ذروتها في العصر الاموي الذي يعتبر عصر التكتلات الواسعة .

وهكذا فانه لا يمكننا القول بعصبية عدنانية شاملة او قحطانية في العصر الجاهلي ذلك ان المجتمع الجاهلي كان مبنياً على اساس العصبيات المتعددة ، ولا يمكن ان تظهر فيه نزعة او فكرة جامعة شاملة ، لان الوعي السياسي فيه ضيق محدود لا تتجاوز حدوده حدود القبيلة في الغالب .

وفي الخلاصة نرى ان العربي كان يجد اللذة في ارتباطه بفكرة العصبية وفنائه من اجلها ، مثل ما يجده ابناء العصر الحاضر في تعلقهم بفكرة الوطن او القومية او المذهب السياسي . وهكذا نرى ان العصبية هي النواة الاولى للحزبية السياسية ، تلك الحزبية التي لم تجد لها مجالاً للظهور في العصر الجاهلي حيث عاش العرب حياة لا حاجة لها للحزبية السياسية بمعناها الدقيق ، لانه لم يكن هناك من مصالح سياسية او اقتصادية معقدة . فالمشكلة كانت في تأمين الغذاء وحماية الأنفس فمتى امن هذا عن طريق العصبية القبلية اي الارتباط الوشيج بين الفرد والقبيلة التي ينتمي اليها او التي انتمى اليها بالولاء او بالاستلحاق اطمأن الى اطعامه من جوع وتأمينه من خوف .

---

١ ـ ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني مجلد ٣ القسم الاول ص ١٥ .

الباب الثاني

ولادة الحزبية السياسية

الفصل الأول

الإسلام وفكرة الحزبية

كان المجتمع العربي عشية الدعوة الإسلامية مجتمعاً قبلياً تتحكم فيه العصبية أشد التحكم . فكان على الإسلام أنْ يواجه هذا الواقع ليصلحه ، ويسمو به الى مستوى اجتماعي رفيع . ولكن مهمة الرسول في الدعوة النبوية كانت مهمة عسيرة بالغة المشقة ، إذ لم يكن يستطيع الاكتفاء بالتدليل على صحة المبادىء التي يبشر بها بل كان عليه أن يتغلب على ما طبع عليه ابناء قومه من عدم الاكتراث واقتضى الأمر أن يوقظ في نفوسهم العاطفة الدينية ، وأن يرشدهم إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم فقد أرسله الله « رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور »[1] .

وكان اول من اتبع محمداً (صلعم) أفراد من أقربائه وأصدقائه ومن الموالي والرقيق[2] غير أنه كان يرغب في ضمّ جميع أهل مكة الى دعوته ، ومن ثم ان يجعل

---

١ ـ القرآن الكريم : سورة الطلاق آية ١٠ .

٢ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٥٩ (كانت خديجة بنت خويلد اول من آمن بالله وبرسوله » .
« وكان اول ذكر من الناس آمن برسول الله علي بن ابي طالب » ص ٢٦٤ .
« ثم اسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله » : ص ٢٦٥ .
« ثم اسلم ابو بكر بن ابي قحافة » : ص ٢٦٧ .

أمته العربية كلها جماعة دينية واحدة ، وفي القرآن إشارات الى الامة ؛ أي جماعة المؤمنين : « كنتم خير أُمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »[١] « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »[٢] .

« ولم تكن الدولة من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث ان هذا النظام سلطانا يخضع له الناس ، وقد وجد بين العرب ، بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جملتها وانما كان هناك أمة ! فلم يكن هناك نظام سياسي من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء »[٣] فالقبيلة هي الوحدة السياسية التي بني عليها المجتمع العربي قبل الإسلام وكان على الإسلام أن ينقل العرب من طور الوحدات السياسية المتعددة القائمة على نظام القبيلة الى طور الوحدة السياسية الشاملة القائمة على نظام الدولة .

فعمد الرسول الى توحيد القبائل العربية تحت لواء الدين ، ليصبحوا امة عربية لها وحدتها العنصرية والدينية واللغوية والاجتماعية ، ويكون خضوعهم لرئيس واحد هو الرسول (صلعم) ثم خلفاؤه من بعده . وهذا وحده كاف للقول ، بان العرب إبان ظهور الاسلام ، وتحت لواء لغة واحدة وكتاب واحد ، كانوا يسعون لتكوين دولة عربية لها مقومات الدولة الناشئة . وجاءت الايات القرآنية لترفع من مستوى العرب ولغتهم ولتدعوهم الى التمسك بعنصر فعال من عناصر تكوين امة عربية اللسان موحدة الكلمة .

« انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[٤] .

« وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها »[٥] .

---

١ - القرآن الكريم : سورة آل عمران آية ١١٠ .
٢ - المصدر السابق : سورة البقرة آية ١٤٣ .
٣ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣ - ٤ .
٤ - القرآن الكريم : سورة الزخرف آية ٣ .
٥ - المصدر السابق : سورة الشورى آية ٧ .

« ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته »[1] .

على ان ذلك لم يجعل الدعوة الاسلامية مقتصرة على بلاد العرب بل جاءت للناس كافة : « وما ارسلناك الاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون »[2] وتتجلى عالمية الدعوة الاسلامية في الكتب التي بعث بها الرسول (صلعم) سنة ٦ هـ الى عظماء ملوك ذلك العصر[3] .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى كان على الرسول لتوحيد القبائل العربية وجمع شملها في امة واحدة تحت راية الإسلام ، أن يحارب النزعات العصبية والروح القبلية التي كانت تحول في العصر الجاهلي دون توحد كلمة القبائل العربية وهي التي اوجدت حالة عداء وتنافس بين هذه القبائل وأدت الى اثارة الضغائن والاحقاد فكان لا بد من ايجاد رابطة تقوم مكان الرابطة القبلية (رابطة الدم والاشتراك في النسب) وذلك عن طريق عقيدة تتجاوز الدائرة التي ترسمها رابطة الدم وتستطيع ان تزيلها ولم يكن اجدى واقوى من الرابطة الدينية التي تستطيع احلال مشاعر الاخوة والوئام بين شتى القبائل محل مشاعر العداوة والبغضاء .

وهكذا فقد وجدت العصبية القبلية نفسها منذ مجيء الاسلام أمام خصم قوي شديد المراس هو هذه العقيدة الجديدة التي تدعو العرب كافة الى التآخي والتآزر : « وانما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »[4] وألحت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على الروابط الأخوية التي تقوم بين المسلم واخيه وتؤلف بين قلوب العرب جميعاً . ودعت الى نبذ حمية الجاهلية ونزعاتها والى التخلي عن الروح القبلية كقوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية

١ - القرآن الكريم . سورة فصلت آية ٤٤ .
٢ - المصدر السابق : سورة سبأ آية ٢٧ .
٣ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٧٩ .
٤ - القرآن الكريم : سورة الحجرات آية ١٠ .

الجاهلية »[1] وأُثر عن الرسول طائفة من الاحاديث في ذم العصبية والتنفير من دعوى الجاهلية : « من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية او يدعو لعصبية او ينصر عصبية فقتل قتلة جاهلية »[2] و : « من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم »[3] وجاء في خطبته يوم فتح مكة قوله : « يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء ، الناس من آدم وآدم من تراب »[4] .

كذلك فقد حرص الرسول (صلعم) على التحذير من الدعوة القبلية في بعض الكتب والعهود التي وجهها الى القبائل ودعا الى تغليب داعي الدين على العصبية . ففي عهده الى بني الحارث بن كعب قال : « وينهي اذا كان بين الناس هيج عن الدعاء الى القبائل والعشائر وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع إلى الله ودعا الى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيوف حتى تكون دعواهم الى الله وحده لا شريك له »[5] .

ومن المبادىء الاصلية في الدعوة الاسلامية عدم المفاضلة بين الناس على اساس الانساب او على اساس الاجناس وانما تكون المفاضلة بالتقوى وطاعة الله وتنفيذ اوامره : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير . »[6] .

وفي خطبة الوداع اكد الرسول على هذا المعنى : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل الاّ بالتقوى »[7] و« الناس كلهم سواء كاسنان المشط »[8] .

---

١ ـ القرآن الكريم : سورة الفتح آية ٢٦ .
٢ ـ ابن ماجة : كتاب السنن (باب العصبية) ج ٢ ص ٢٤١ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ٢٤١ .
٤ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٣٢ وكذلك ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٨ .
٥ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٦٦ .
٦ ـ القرآن الكريم : سورة الحجرات آية ١٣ .
٧ ـ ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٥٨ والجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٣ .
٨ ـ الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ١٩ .

وهكذا شهد العرب في مجتمعهم ظاهرة لم يسبق لهم ان شهدوها من ذي قبل ؛ شهدوا محمداً القرشي يبدو كأنه أخ لبلال الحبشي ؛ وهو عبد زنجي ، ولزيد ابن حارثة الكلبي ؛ وهو مولى لخديجة وهبته للرسول فاعتقه . « ففكرة المساواة بين المؤمنين في الإسلام، والتي لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وأعجمي أو بين عبد وحرّ ممن اعتنقوا الاسلام ، فكرة عارضت في الصميم نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بني احترامه الشخصي على شهرة أجداده ، ومضى اقتداء بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم »[1] . كذلك فقد حرص الرسول (صلعم) على إلغاء دواعي الخصومة والعداوة بين قبائل العرب منذ قيام الإسلام وذلك بابطال دماء الجاهلية وإهدارها . ففي خطبته يوم فتح مكة قال : « ألا كلُّ دين ومال ودم ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي »[2] .

كذلك فقد ألغى الرسول حق الثأر الفردي ، وجعل العقاب منوطاً بالله وبالرسول لا بالفرد او القبيلة . والاتجاه نحو فكرة العقوبة كانت خطوة مهمة للحدّ من المنازعات القبلية « وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد (صلعم) »[3] .

وكان من تأثير هذه المبادىء والعقائد التي دعا إليها الاسلام واستهدفت كيان المجتمع القبلي بما يمثله من عادات وأعراف وتقاليد ، أن الرسول في مكة حيث بدأت الدعوة لم يسلم من أذى أهله وعشيرته[4] . فقد حدث رد فعل عنيف من قبل قريش اذ وجد زعماؤها أنفسهم مهددين في عقيدتهم ومصالحهم ، فازدادت الحرب الكلامية احتداماً بينهم وبين المسلمين وربما تعدت مجرد الانتقاد إلى التهديد « ولكن قوة العصبية للقبيل التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة

---

١ - ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٤ .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٣٢ . وكذلك البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٤ (مع تغيير في اللفظ)

٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٢١ .

٤ - الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٠ .

اعتداء على حياته بالرغم من أن بني طالب وبني هاشم عشيرة الرسول لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي جاء بها النبي »[1] . وكان من مظاهر هذا الوضع الجديد ان ترك الرسول (صلعم) قومه قريشاً وأهله الأدنين بمكة ، واضطر للهجرة إلى يثرب حيث الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية ، اكثر ملاءمة للدعوة الإسلامية ؛ فالمجتمع اليثربي قبل قدوم الرسول اليه ، كان منقسماً على نفسه ، ويفتقر إلى الوحدة بين عناصره المختلفة ، فقد كانت يثرب مشغولة بنزاع دائم بين قبيلتي الأوس والخزرج ، وهما عربيتان مشركتان ، وسادت المدينة حال من الفوضى وانعدام الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة[2] . والرسول بوصفه فوق كل عصبية دموية ، وفوق كل نزاع حزبي ، وداعية وحدة وتضامن ، تحت لواء دين يجمع ولا يفرق ، كان افضل حل لمشاكل مدينة كيثرب تشكو أشد الشكوى من عوامل الفرقة والانقسام .

كذلك لا ننسى اثر اليهودية التي كانت منتشرة في المدينة فقد جعلت اهل يثرب يتقبلون التعاليم التي تدعو إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد .

وهناك من يعزو نجاح مهمة الرسول في يثرب إلى عامل العصبية إذ كان بين مكة ويثرب منافسة ومسابقة وتحاسد لتباعدهما في الانساب لأن أهل مكة من العدنانية وأهل يثرب من القحطانية »[3] ونحن نشك في هذا الأمر لأن العصبية للعدنانية او للقحطانية لم تكن قد برزت في ذلك الوقت . فقد كان علينا ان ننتظر ظهورها حتى مجيء الدولة الاموية .

وذهب بعضهم في تعليل مناصرة اهل يثرب للرسول واستقباله في مدينتهم الى أنه « لم يكن في المدينة من يخاف على تجارته إذا بطلت عبادة الأصنام بل هم يفضلون

---

١ - ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٠ .

٢ - Lammens ,le berceau de l'islam P 264

٣ - جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٤٧ .

إبطالها لتسقط مكة ، وتنهض مدينتهم ، خصوصاً إذا هاجر إليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج اليها الناس بدلاً من حجهم الى مكة »(١) ولكننا نرى ان الدعوة التي وجهها أهل يثرب الى الرسول في البداية لم تكن تبغي العداء لمكة وحتى بعد بدء الغزوات فان أهل يثرب لم يشتركوا فيها حتى لا يولّد ذلك عداوة مع مكة(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن الرسول استطاع في المدينة ان يقيم نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً ، « فقد أقام حكومة دينية مطلقة بدلاً من حكومة الارستقراطية القبلية التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشؤون العامة تحت لوائها » .(٣) واستطاع الرسول بذلك « ان يوجه ضربة قوية إلى النظام المتركز في حياة العرب »(٤) .

ولكن إلى أيّ حدّ تأثر المجتمع العربي بالإسلام ؟ وهل أدت التعاليم الاسلامية والتدابير التي اتخذها الرسول الى القضاء على النزعات الجاهلية والعصبية القبلية ؟ وهل أدى توحيد العرب في أمة واحدة تحت راية الاسلام الى الغاء الروح القبلية وإحلال الشعور القومي محلها ؟

في الحقيقة إنه لم يكن من السهل أن يقتلع الدين الجديد من نفوس العرب بين عشية وضحاها جذور العصبية التي رسخت فيها على مر القرون وجرت من نفوسهم مجرى الدماء في العروق ،لذلك فقد دار صراع عنيف في نفس العربي بين العقيدة الدينيةوما تمثلها من مبادىء وتعاليم وبين العصبية القبلية . وكان الصراع بين وضع جاهلي قديم ونظام إسلامي جديد . واذا شئت فقل بين دولة تزول وأخرى تقوم . فالواقع « أن ظهور عاملي الدين والقومية على مسرح الحياة العربية

١ ـ المصدر السابق : ص ٤٧ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٤٠٢ .
٣ ـ ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٧ .
٤ ـ **Lammens**, L'arabie occidentale avant l'hégire P. 237-238

أدى من دون شك الى إضعاف النزعة القبلية ولكنه لم يؤد إلى القضاء عليها قضاء تاماً »[1] .

« فالأساس القبلي أصبح في رأي الإسلام منكراً ، نهى عنه الرسول وانكر دعوة الجاهلية والتشبث بالعصبية وأحلّ محل هذه الحمية أساساً آخر عاماً عريض الأفق هو الاسلام أو الدين الإنساني الجديد ، وضمن هذا الشعار الجديد برزت رابطة جديدة هي الرابطة الدينية بين المسلمين »[2] .

ويعبر السيد توماس ارنولد نقلاً عن فون كريمر اصدق تعبير عن وضع القبائل العربية في الاسلام بقوله : « وقد جمعت فكرة الدين المشترك ، تحت زعامة واحدة ، شتى القبائل في نظام سياسي واحد . ذلك أن النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهشة والاعجاب ، وان فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية . وهكذا كان النظام القبلي لاول مرة وان لم يقض عليه نهائيا (اذ كان ذلك مستحيلاً) شيئا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية »[3] .

ففي المدينة حيث سعى الرسول لوضع الحجر الاساسي لأول دولة في الاسلام يحل الدين فيها مكان العصبية القبلية بقي انتماء الفرد الى الامة عن طريق العشيرة والقبيلة ؛ فالذين هاجروا من مكة الى المدينة كونوا حياً لقريش بيثرب واصبحوا فرعاً لقبيلة قريش في الوطن الجديد . « فالمجتمع آنذاك لم يكن يعترف بالفرد دون ان تكون له قبيلة ينتسب اليها ، حتى الموالي من غير العرب التحقوا بقبائل عربية »[4] . فقد احتفظ المكيون الذين جاءوا مع الرسول عليه السلام الى يثرب

---

١ ـ زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ـ محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ ـ السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ص ٣٠٠ .

٢ ـ زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ـ محاضرات الندوة اللبنانية سنة ١٩٥٤ السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ص ٢٩٩ .

٣ ـ ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥٣ .

٤ ـ فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٣٦ .

وسموا بالمهاجرين بهويتهم والى جانبهم تمسكت قبائل العرب من الانصار التي كانت تسكن المدينة بهويتها ولم يشذ عن ذلك قبائل اليهود في المدينة .

وقد حفظ لنا ابن هشام برواية ابن إسحق كتابا عقده الرسول بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود وهو ما يعرف بالصحيفة والذي كان بمثابة الدستور الذي نظم حياة الدولة الإسلامية عقب الهجرة .

فقد جاء في الكتاب او الصحيفة ان الفرد لا ينتمي إلى الأمّة إلاّ عن طريق العشيرة والقبيلة ، وبذلك تبقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي ، ولم يخطر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف . وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم . كذلك فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصاً دفع الدية وفداء الأسرى وكذلك بقيت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء فلا يسوغ لاحد ان يدعو مولى الى مخالفة مولاه[1] .

كذلك مجلس الشورى في عهد الرسول او الهيئة التي تكونت من المهاجرين الأولين والتي تذكر المصادر أنهم « العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة »[2] فقد كانت اقرب الى حكومة الدولة العربية الاسلامية التي قامت في يثرب وهيئتها التأسيسية منها الى جماعة من التقاة المبشرين بالجنّة[3] . فهؤلاء العشرة كانوا من قوم الرسول قريش ويمثلون أهم بطون قريش . فالدعوة الإسلامية وإن كانت ترمي إلى تخطي الحواجز القومية فضلاً عن القبلية فإن ظروفها في نشأتها وصراعها مع خصومها فرضت عليها ان تلجأ للاستفادة من التأييد والنصرة المستمدين من العلاقات

---

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ . ص ١١٩ ـ ١٢٠ .
٢ ـ ابن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣١٩ .
« العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة هم : ابو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، طلحة ، الزبير ، عبدالرحمن بن عوف ، سعد بن ابي وقاص ، سعيد بن زيد ، ابو عبيدة بن الجراح » .
٣ ـ محمد عمارة : الخلافة ونشأة الاحزاب السياسية ص ٥٦ .

والروابط القبلية . فالنفوذ والعصبية هما معيار الاختيار الأول في هذا المقام « لأن الرياسة إنما تكون بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية ، فلا بد في الرياسة على القوم ان تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة »[١] .

وبالرغم من المساعي التي بذلها الرسول لتوحيد كلمة المسلمين وإحلال الدين محل العصبية فقد ظهرت في المدينة بعد الهجرة فئتان من المسلمين لا فئة واحدة : المهاجرون والأنصار . فالمهاجرون هم المكيون الذين هاجروا مع الرسول (صلعم) والأنصار هم اهل المدينة من الأوس والخزرج . ولم تكن هاتان الفئتان منفصلتين في محيطهما عن جماعة غير المسلمين الذين كانت غالبيتهم من اليهود وبينهم بعض المشركين من الأوس والخزرج[٢] . أو من فئة المنافقين الذين كان اسلامهم ظاهريا « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين »[٣] .

وعلى الرغم من مشاغل الرسول الكثيرة فقد تنبَّه إلى هذا الواقع الجديد وهو انقسام الجماعة الاسلامية إلى فئتين وهو الذي عمل جاهداً على جعل المسلمين جماعة واحدة فعالج الأمر بروح محبة واعية فاوجد رابطة جديدة بين فئتي المجتمع الجديد وهي رابطة الاخوة . قال ابن اسحق : « وآخى الرسول بين أصحابه من المهاجرين والأنصار »[٤] .

ولكن الأحداث في ذلك الحين سارت على غير ما يشتهي الرسول إذ ظهر التمييز جلياً بين فريقي المسلمين في الدولة الإسلامية الاولى في امر السرايا السبع الأول التي وجه الرسول ستاً منها ضد قوافل قريش التجارية . فالملاحظ من امر هذه السرايا أن جميع أفرادها كانوا من المهاجرين ولم يشترك فيها من الأنصار أحد[٥] .

---

١ ـ ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣١ .
٢ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ١٣٥ .
٣ ـ القرآن الكريم : سورة البقرة آية ٨ .
٤ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ١٢٤ .
٥ ـ ان رسول الله (صلعم) عقد على رأس سبعة اشهر من مهاجرة عقد لحمزة بن عبد المطلب لواء ابيض في=

وهذا اول تمييز في المجتمع الاسلامي بين فئتين من المسلمين تعيشان في المدينة معقل الإسلام الأول .

وقد يكون السبب في عدم إشراك الأنصار في أمر هذه السرايا التزام الرسول (صلعم) بصيغة بيعة العقبة الثانية ؛ وهي معاهدة دفاعية بين النبي وبينهم والتي جاء فيها : « والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أُزُرَنا »[1] .

فالأنصار كانوا في المجتمع الإسلامي فئة من المسلمين على الرسول استشارتهم قبل البدء بالمعركة ، ولم تكن حتى غزوة بدر الكبرى قد اشتركت في أعمال الرسول الحربية. ففي غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ استشار النبي اصحابه قبل الخروج على قريش ولا سيما الأنصار منهم : « اشيروا علي ايها الناس » وانما يريد الانصار وذلك انهم عدد الناس ، وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فإذا وصلت الينا فانت في ذمتنا

= ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترض لغيرات قريش : الطبري ج ٢ ص ٤٠٣ .
انظر : ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٧٧ ـ ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٦ .
ـ ان رسول الله(صلعم) عقد ايضاً في هذه السنة على رأس ثمانية اشهر من مهاجرة في شوال لعبيدة بن الحارث بن المطلب لواء ابيض . . في ستين من المهاجرين ليس فيهم انصاري .
الطبري : ج ٢ ص ٤٠٢ وابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٢٢٤ ـ ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٧ .
ـ كذلك فقد عقد رسول الله لسعد بن ابي وقاص الى الخرار لواء ابيض وكان من مع سعد كلهم من المهاجرين . الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ وابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ وابن سعد ج ٢ ص ٧ .
ـ كذلك فقد بعث النبي عبيدة بن الحارث بن المطلب في ثمانين او ستين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الانصار احد . الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ . ابن سعد ج ٢ ص ٧ .
ـ وبعث حمزة بن عبدالمطلب في مقام ذلك الى سيف البحر . . في ثلاثين راكبا من المهاجرين . . ليس فيهم من الانصار احد .
الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٠ وابن سعد ج ٢ ص ٨ .
ـ وبعث عبدالله بن جحش معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الانصار احد .
الطبري ج ٢ ص ٤١٠ (ذكر الواقدي انهم ١٢ رجلاً) ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٩ وابن سعد ج ٢ ص ١٠ .

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٠ وكذلك : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٣٦٢ .

نمنلك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا ، فكان رسول‌الله (صلعم) يتخوف الاّ تكون الأنصار ترى عليها نصره الاّ ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله(صلعم)قال له سعدبن معاذ: والله لكأنك تُريدنا يا رسول الله ، قال : « اجل » قال : قد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما اردت فنحن معك . . »[١] .

ولكن هذه الفئة من المسلمين كانت تجد نفسها في كثير من الاحيان مهضومة الحق بالرغم مما قدمت من تضحيات وبلاء في سبيل نشر العقيدة الاسلامية وتدعيمها ، فالغنائم الوافرة التي سقطت في أيدي المسلمين المنتصرين في غزوة حنين ذهبت جميعها إلى المكيين ولم ينل الأنصار من تلك العطايا شيئا حتى قال قائلهم : « لقي والله رسول الله قومه »[٢] ولكن الرسول استطاع بحكمته أن يشرح للأنصار الهدف والحكمة من تصرفه : « اوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة من الدنيا تآلفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم »[٣] « فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتآلفهم »[٤] .

ولعلّ الهدف من إيثار قريش بهذه العطايا يعود إلى أسباب سياسية . فالمكيون الذين حاربوا الاسلام طويلاً ولم يدخلوا فيه إلاّ مرغمين بعد فتح مكة كانواما يزالون قريبي العهد بالإيمان ، لذلك حاول الرسول أن يظهر لهم الفائدة المادية الكبيرة التي يمكنهم أن يجنوها من دخولهم في الدين الجديد بعد تركهم عبادة الاصنام في الكعبة

---

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية : ج ٢ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

٢ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٧ .

كذلك في صحيح البخاري : ففي قسمة اموال هوازن قال ناس من الانصار « يغفر الله لرسول الله (صلعم) يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » ج ٥ ص ٢٠٠ .

« ويوم فتح مكة قسم رسول الله (صلعم) غنائم في قريش فغضبت الانصار » ج ٥ ص ٢٠١ .

٣ ـ البخاري : الصحيح ج ٥ ص ٢٠١ .

٤ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ١٤٨ .

والتي كانوا يحافظون عليها ، لا تمسكا بها ، لما تمثله من قيم دينية ، ولكن بما تفيضه عليهم من نعم مادية .

ولكن بالرغم من الجهود التي بذلها الرسول في محو اثار العصبية الجاهلية من النفوس مستشهداً تارة بالآيات القرآنية واخرى بالاحاديث الشريفة فان العصبية القبلية وما يتصل بها من نزعات وعادات كانت تظهر من حين لآخر .

فكثير من القبائل العربية التي اعتنقت الاسلام لم تنس أحقاد الجاهلية وثاراتها على الرغم من الأحاديث النبوية في ذم هذه العادات ، فقد قتلت « خزاعة » عام الفتح رجلاً من بني ليث بقتيل لها في الجاهلية[1] كذلك فبالرغم من مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار والعمل على صهرهما في بوتقة الإسلام فإن النزاع قد نشب بينهما اكثر من مرة .

ففي غزوة بني المصطلق أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار فكان بينهما قتال إلى أن صرخ : يا معشر الأنصار . وصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين . فبلغ ذلك النبي (صلعم) فقال : « ما لكم ولدعوة الجاهلية » ؟ قالوا : « كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار» . فقال رسول الله : دعوها فانها منتنة . (وهذا دليل على محاولة الرسوْل الدائمة في محاربة العصبية) . ولكن عبدالله بن ابي بن ابي سلول قال : لئن رجعنا إلى المدينة لنخرجن الأعز منها الأذل[2] .

كذلك ففي الخبر عن حديث الإفك ذكر ابن اسحق : « قال اسيد بن حضير (زعيم الخزرج) : يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفكهم وان يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك . فوالله إنهم أهل أن تضرب أعناقهم . فقام سعد بن

---

١ ـ البخاري : الصحيح ج ٩ ص ٦ .

٢ ـ الطبري : جامع البيان عن تأويل اي القرآن ج ٨ ص ١١٢ .
انظر هذه الرواية في : ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .
والبخاري : الصحيح ج ٤ ص ٢٢٣ .

عبادة فقال : كذبت لعمر الله لا نضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلاّ أنك قد عرفت أنهم من الخزرج . ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . . . وتثاور الناس حتى كاد يكون بين هذينْ الحيين من الاوس والخزرج شر [١] .

وفي الخبر عن ابن إسحق « أن شاس بن قيس كان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين مر على نفر من الأوس والخزرج فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . . . فأمر فتى شابا من يهود كان معه أن يذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان يوم بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج . . . ففعل ، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين . . . . فتقاولا . . ثم قال أحدهم لصاحبه : إن شئتم رددنا الآن جذعة . . . فبلغ ذلك رسول الله (صلعم) فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين الله ـ الله ، ابدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام . . . » فعرف القوم إنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً »[٢] .

ولكن هذا النزاع الذي كان بين الأوس والخزرج في الجاهلية اتخذ صورة جديدة في الإسلام ألا وهي تنافسهما في نصرة الرسول . فقد ذكر ابن اسحق : « ان هذين الحيين كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول النحلين لا تصنع الأوس شيئا فيه غناء عن رسول الله إلاّ قالت الخزرج والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها . فلما قتلت الأوس كعب بن الأشرف لعداوته لرسول الله وتحريضه عليه استأذن الخزرج الرسول في قتل سلام بن ابي الحقيق اليهودي بخيبر فأذن لهم »[٣] .

---

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٤٥ وكذلك البخاري : الصحيح ج ٥ ص ١٥١ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٣٤٥ .

ومثل هذه العصبية نجدها بين بطون قريش أيضاً . فقد كان بين بني هاشم وبني أمية منافسة قديمة ترجع إلى أيام الجاهلية .[1] فلما جهر الرسول الهاشمي بدعوته نصره جلّ بني هاشم وامتنع أكثر بني أمية عن الدخول في دينه وعلى رأسهم شيخهم أبو سفيان وقد ظلت العداوة بين الأسرتين قائمة فترة طويلة .

ولا ننسى أن الجيش الإسلامي يوم فتح مكة وحنين والطائف لم يقاتل الاّ كقبائل لكل منها شعارها الخاص : « شعار المهاجرين : « يا بني عبدالرحمن » وشعار الخزرج « يا بني عبدالله » وشعار الأوس « يا بني عبيدالله »[2] . « كذلك فعصبية النسب لم تذهب بعد الإسلام ذهابا تاماً ولكنها تحولت إلى وجهة دينية . فاصبح أشرف الأنساب عندهم أقربها إلى قبيلة النبي قريش ، فالنسب القرشي أشرف الأنساب وللقرشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء »[3] .

يضاف الى ذلك أن القصائد التي وضعت في هذه الفترة من تاريخ الدولة الاسلامية من جانب شعراء المدينة وفخرها بالرسول والإسلام وهجاء قريش بهزيمتها وسوء عقيدتها ، ومن جانب مكة بهجاء الأنصار والمهاجرين والوعيد بأيام يثأرون فيها لأنفسهم ، يدل على أن العصبية الجاهلية لم تمح تماماً من نفوس الفريقين[4] فابن هشام يذكر العديد من القصائد في هذا المجال دون الإشارة إلى المنحول منها . فإذا ما صح ما روي عن طالب بن ابي طالب فهو في بدر يمدح الرسول (صلعم) ويبكي مصارع قريش ويتمنى لو اتفقت القبيلة مكيها ومدينيها على الأنصار . فقد كان محرجاً بين النزعة القرشية العامة في وجه الأنصار وبين العاطفة الهاشمية الخاصة في وجه قريش[5] حتى ان قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) كانت ذات صلة بالعصبية ؛ فان كعباً لما مدح رسول الله (صلعم) وخص معه قريشاً ، غضبت

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢٥٣ .
٢ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٨ وكذلك البخاري : الصحيح ج ٤ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .
٣ ـ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٣١٦ .
٤ ـ احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ص ١١٠ .
٥ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .

الأنصار . فعاد كعب ومدح هؤلاء بقصيدة ترضية لهم . وهذا موقف يجمع بين آثار العصبية القديمة وسمات الوحدة الاسلامية الحديثة . كذلك ففي السيرة له قصائد عديدة يفخر فيها بقومه من الأنصار[1] .

وخلاصة القول إن العقيدة الجديدة التي بشر بها الرسول (صلعم) ودعا من خلالها إلى قيام مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الاخوة الاسلامية في المجتمع العربي ، قد أخذ في إضعاف قوة الرابطة القبلية القديمة القائمة على أساس رابطة الدم ، لإحلال رابطة أشد متانة وتأثيراً هي الرابطة الدينية .

وهكذا فانه في هذه الفترة من حياة الدولة الاسلامية الذي كان فيها الرسول المرجع الأول والاخير فيما يتعلق بشؤون المسلمين الدينية والدنيوية لم يشهد ما يصح أن يسمى أحزاباً سياسية بالمعنى الكامل ، وانما نواة حزبية او بداية تكتلات ضمن الجماعة الاسلامية ، فهناك فئة المهاجرين وفئة الأنصار وهما الفئتان الأساسيتان في المجتمع الإسلامي إضافة إلى عنصر الأعراب وهم أفراد القبائل التي انضوت تحت راية الإسلام بعد عام الوفود سنة ٩ هـ . وقد بقيت فكرة الايمان والعقيدة هي المسيطرة في ذلك الحين .

---

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦٧ .

الفَصْل الثاني

الخلافة ونشأة الحزبية السياسية

الحزبية السياسية في القديم والحديث هي قيام تكتل يضم جماعة من الناس لهم مصالح متقاربة وافكار متناسقة ولهم غايات موحدة ناجمة عن وضع موحد « فالحزب (الطائفة) كما في الاساس ، وفي لسان العرب ، هو الصنف من الناس . وهو كل جماعة الناس وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم[١] .

كذلك « فالحزب جند الرجل جماعته المستعدة دوماً للقتال ونحوه . وحزب الرجل أصحابه الذين على رأيه »[٢] .

أما عصر الرسول فكما أسلفنا لم يشهد نشوء أحزاب سياسية واضحة بل نواة حزبية أو بداية تكتلات في المجتمع الإسلامي فكان المسلمون من مهاجرين وأنصار آنذاك يدينون للنبي بالطاعة المطلقة وكانت كلمته القول الفصل في كل المسائل الدينية والاجتماعية والتشريعية ، إليها يرجع المؤمنون ، اذا طرأ خلاف بينهم ، فلم يكن من مجال لنشوء الفرق واختلاف المذاهب . وهذا ما عبر عنه البغدادي بقوله « كان المسلمون عند وفاة الرسول (صلعم) على منهاج واحد في اصول الدين

---

١ ـ ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٦٢١ .
٢ ـ الزبيدي : تاج العروس مجلد ١ ص ٢٠٩ .

وفروعه غير من اظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً »[١] .

ولكن الخلاف نشأ بين المسلمين بعد وفاة الرسول ، والاختلاف امر طبيعي بين البشر وقدعبرعن ذلك الرسول(صلعم)بقوله : «ليأتين على امتي ما اتى على بني اسرائيل تفترق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وستفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة كلهم في النار الاّ واحدة »[٢] .

وما دام الخلاف طبيعياً في المجتمعات البشرية ، فلا بد من ان تمر الامة الاسلامية بمراحل من النزاع وفترات من الخلاف . ولا غرابة في اختلاف المسلمين بعدوفاةالنبي (صلعم)وإن كانت بذورالخلاف الأولى قدبدأت عندمرض النبي ووفاته ودفنه . وقد أورد الشهرستاني ذلك تحت عنوان « في بيان أول شبهة وقعت في الملة الإسلامية ، وكيفية انشعابها ، ومن مصدرها ، ومن مظهرها »[٣] .

ولكن النزاع ظهر بين المسلمين منذ بدأوا يفكرون عمليا في من يخلف رسول الله « فقد كانت المسألة التي اختلف فيها المسلمون بعد النبي هي مسألة الخلافة أو الإمامة »[٤]وكانت من اعظم العوامل على الإطلاق في ظهور الأحزاب السياسية في ذلك الحين ومن ثم في نشوء الفرق الاسلامية . فمسألة الخلافة هي مسألة سياسية لا علاقة للدين بها. فالمسلمون لم يختلفوا في أركان الاسلام ومبادئه بل تركزت خلافاتهم في موضوع الخلافة او الإمامة ذي الصبغة السياسية .

فأول حركة سياسية بعد وفاة الرسول كانت مبادرة الأنصار من الأوس والخزرج الى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر خلافة الرسول ودعوا الى عقد الأمر لسعد بن عبادةالأنصاري الخزرجي ،وقد علم بأمر اجتماعهم عمر بن

---

١ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٢ .
٢ - المصدر السابق : ص ٤ - ٥ .
٣ - الشهرستاني :الملل والنحل ج ١ ص ١٢ .
٤ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٣ .

الخطاب واخبر أبا بكر بالأمر فاصطحبا ابا عبيدة بن الجراح ومضيا مسرعين نحوهم[1] . والتقى المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة وطبيعي أن يحدث التنافس والصراع على السلطة والإمارة بينهم ، فهم جميعاً مسلمون ولم يختلفوا في الدين ولكن بعض العصبية القبلية كانت لا تزال كامنة في نفوس كثير منهم ، فقد عبرت هذه الروح عن نفسها في تصرفات طائفة من الذين ظهروا على المسرح السياسي في المدينة بعد وفاة الرسول بساعات وتحكمت في سير الأحداث ومجرى الامور التي توالت بسرعة مذهلة .

ففي هذه الفترة من حياة الدولة الإسلامية برزت في الساحة ثلاثة احزاب لكل منها وجهة نظر خاصة فيمن يخلف الرسول . « فعندما قبض رسول الله(صلعم)في شهر ربيع الاول سنة عشر من الهجرة افترقت الأمة ثلاث فرق : فرقة منها سميت الشيعة وهم شيعة علي بن ابي طالب عليه السلام ومنهم افترقت صنوف الشيعة كلها ، وفرقة منهم ادعت الامرة والسلطان وهم الانصار ودعوا الى عقد الامر لسعد ابن عبادة الخزرجي وفرقة مالت الى بيعة ابي بكر بن ابي قحافة »[2] .

فأما حزب الأنصار فقد قوضت خطبة أبي بكر أركان الوحدة فيه ، وهذا الحزب لم يخلق فجأة يوم توفي الرسول بالذات ، بل اننا نرى ان اجتماع السقيفة الذي كان عن سابق تصور وتصميم قد انتهى بجماعة الأنصار إلى اتخاذ هذه الخطوة يوم وفاةالنبي . والذي يؤيد هذا الرأي ماورد عن الرسول (صلعم) من اقوال مما جعل الانصار يشعرون بانهم سيضطهدون بعده . من ذلك قول الرسول للناس اثناء وضه الذيتوفي فيه « ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض »[3] كذلك وصيته للمهاجرين بالأنصار : « أما بعد يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ،

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢١٨ - ٢١٩ .
٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢ - ٣ .
٣ - البخاري : الصحيح ج ٥ ص ٤٣ .

وانهم كانوا عيبتي التي أويت اليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم »[1] .

وكان لصدور مثل هذه الأقوال النبوية أثر في نفوس الأنصار الذين شعروا بالخوف من المصير السيء ، فجمعهم هذا الشعور المشترك بالخطر على معنى واحد يعملون له متحدين وهو دعم مركزهم في الجماعة الاسلامية مما يجعلهم بمأمن من عدوان قريش وغير قريش ممن يضمرون لهم الضغينة ويظهرون لهم غير ما تكنه صدورهم .

فموقف سعد بن عبادة الذي طمح إلى الإمارة يوم السقيفة قبل أن تنتزعها منه قريش لأبي بكر ، يعدُّ امتداداً لموقفه من قريش يوم فتح مكة . فعندما مر بأبي سفيان زعيم قريش نظر إليه سعد وقال : « اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم اذل الله قريشاً »[2] ذلك انه اراد يوم فتح مكة ان يستأصل شأفة[3] القرشيين الذين لم يدخلوا بعد في الإسلام .

كذلك هناك موقف ثان يجسد المشاعر غير الودية التي كانت لدى سعد بن عبادة وقومه من الأنصار تجاه قريش قوم الرسول عقب غزوة حُنين وقسمة غنائمها « حين اعطى رسول الله من تلك الغنائم قريشاً ولم يعط الأنصار شيئاً فوجدوا في انفسهم حتى قال قائلهم لقي رسول الله قومه »[4] .

ولكنه بمرور الأيام أخذ الأنصار يشعرون بأن القرشيين الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم فقاموا بمحاولات لكي يظهروا أنهم سادة في ديارهم وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم[5] . فعند وفاة الرسول قاموا بحركة قوية

---

١ ـ البخاري الصحيح : ج ٥ ص ٤٣ وكذلك ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٢٨ .
٢ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٦ وكذلك البخاري : الصحيح ج ٥ ص ١٨٧ مع تغير في اللفظ .
٣ ـ الشأفة : العداوة والاذى .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٩٣ وابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .
٥ ـ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٦ .

لكي يحصلوا على حقهم في السيادة في مدينتهم او ليحافظوا على الاقل على استقلالهم فيها . ولكنهم نسوا ان المدينة منذ زمن بعيد لم تعد مدينتهم بل صارت مدينة الرسول التي جعل منها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام . وهكذا فقد ظهر الصراع بين المهاجرين والأنصار وكان عامل الخوف هو السبب الأول لظهور حزب الأنصار وقد كان هذا العامل في جملة ما احتج به اعضاء هذا الحزب لحقهم في الخلافة .

أما حججهم التي استندوا اليها لدعم موقفهم في سقيفة بني ساعدة فتتألف كما يظهر من خطبهم من ثلاثة أمور :

١ ـ ان دارهم هي دار الهجرة في قول الحباب بن المنذر : « يا معشر الأنصار أنتم أهل الايواء والنصرة ، واليكم كانت الهجرة ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان »[١] ففي ديارهم تكون المجتمع الاسلامي حيث استوفى خصائص المجتمع السياسي ، فكانت له حكومة وإدارة ونظام ودارهم هي الدار التي انطلقت منها الدعوة فاكتسحت الجزيرة كلها .

٢ ـ انهم بذلوا في سبيل الدعوة الإسلامية دماءهم وأموالهم ونذروا أنفسهم للكفاح في سبيلها والدفاع عنها . يدلك على ذلك قول الحباب بن المنذر في السقيفة : « وأنتم أحق بهذا الأمر فإن باسيافكم دان الناس بهذا الدين »[٢] .

٣ ـ خوفهم من قريش ان تصير اليها السلطة وتملك زمام الأمر فتنتقم منهم وتوقع بهم وقد قتلوا رجالها في حروب الإسلام . ويدلك على هذا قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة« منا امير ومنكم أمير ، فان عمل المهاجري في الأنصاري شيئاً ، رد عليه ، وإن عمل الأنصاري في المهاجري شيئاً رد عليه »[٣] .

---

١ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ٨ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢ .
٣ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٧ .

كذلك فبعد مبايعة ابي بكر وتحول الامارة عن الانصار ، نرى الحباب بن المنذر يقول : « فعلتموها يا معشر الانصار ، أما والله لكاني بابنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم باكفهم ولا يسقون الماء . قال أبو بكر : أمنا تخاف يا حباب ؟ قال ليس منك أخاف ولكن ممن يجيء بعدك . إذا ذهبت انا وانت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم »[1] .

هذه هي حجج الأنصار التي احتجوا بها حول أحقيتهم بالخلافة . ولكن أبا بكر استطاع أن يوقظ العصبية القبلية الكامنة في نفوس فريقي الأنصار من الأوس والخزرج حين قال مخاطباً الأنصار : « إن هذا الأمر إن تطاولت إليه الخزرج لم تقصرعنه الأوس ، وان تطاولت إليه الأوس لم تقصرعنه الخزرج . وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى وجراح لا تداوى ، فان نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي اسد يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري»[2] . وهذا ما جعل الأنصار ينقسمون الى فريقين ويندفع اسيد بن حضير سيد الأوس يقول لأصحابه : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت بهم عليهم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً »[3] .

ففي سقيفة بني ساعدة إذن برزت العصبية القبلية في نفوس جماعتي الأنصار (من الأوس والخزرج) والتي لم يستطع الإسلام محوها نهائيا . فقد انقسم الأنصار وقام بشير بن سعد وكان حاسداً لسعد بن عبادة وكان من سادة الخزرج فقال : « يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ؛ ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا ؛ والكدح لانفسنا ؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ؛ فإن الله ولي المنة علينا بذلك ؛ الا ان محمداً (صلعم) من قريش ، وقومه أحق به

---

١ ـ المنسوب لابن قتيبة : الامامة والسياسة ص ٩
٢ ـ الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص ٢٩٨ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢١ .

وأولى . وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم »[١] .

ومن ثم بادر بشير بن سعد فبايع أبا بكر ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد قام اسيد بن حضير وهو رئيس الأوس فبايع سعداً بدافع الحسد والمنافسة فبايعت الأوس كلها لما بايع اسيد[٢] .

ولم يغب عن أبي بكر أن الدافع للأنصار للقيام بهذه الحركة هو عامل الخوف فلمح في خطبته إلى ما يقتلع هذا الوهم من أنفسهم ويبعث الأمن والطمأنينة في نفوسهم حين قال : « وأنتم يا معشر الانصار من لا ينكر فضلكم في الدين ولا سابقتكم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله انصاراً لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه واصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ؛ فنحن الأمراء وانتم الوزراء لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور »[٣] .

والحزب الثاني هو حزب المهاجرين ؛ وهو الحزب الذي تمت له الغلبة في الميدان السياسي فاحرز السيادة حين تمت البيعة لابي بكر خليفة للمسلمين اما وجهة نظر هذا الحزب في خلافة النبي فقد « تأولت ان النبي لم ينص على خليفة بعينه وانه جعل الأمر الى الأمة تختار لنفسها من رضيته واعتل قوم منهم برواية ذكروها أن رسول الله (صلعم) أمر ابا بكر في ليلته التي توفي فيها بالصلاة بأصحابه فجعلوا ذلك الدليل على استحقاقه اياه وقالوا ، رضيه النبي (صلعم) ، لأمر ديننا ورضيناه لأمر دنيانا وأوجبوا له الخلافة بذلك »[٤] .

اما منطلق هذا الحزب فيستند إلى دعامتين: السبق والقرابة . فهذا ابو بكر

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢١ .
٢ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢١ .
٣ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢٠
٤ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٣ .

يحتج على الأنصار بقوله : « فهم (يعني المهاجرين) اول من عبد الله في الارض وآمن بالله وبالرسول ؛ وهم اولياؤه وعشيرته ، واحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الاّ ظالم »[1] ، كذلك فان الحق لقريش وحدها في خلافة الرسول (صلعم) كما يقول عمربن الخطاب : « ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن اولياؤه وعشيرته إلاً مُدلّ بباطل ، او متجانف لاثم ، ومتورط في هلكة »[2] ، وها هو يرد على الحباب بن المنذر في دعواه « منا أمير ومنكم أمير »[3] ، اي من قريش امير ومن الأنصار امير وهو الحل الوسط الذي عرضته الانصار في تلك المناورة السياسية . « ولكن هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوةفيهم وولي أمورهم منهم ،ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين »[4] . وكان من نتيجة هذه المناظرة السياسية المثيرة « ان سكتت الأنصار عن دعواها لرواية أبي بكر عن النبي عليه السلام الأئمة من قريش »[5] .

فالملاحظ للجدل الذي قام بين حزبي المهاجرين والأنصار في السقيفةأن مسألة الخلافة اتخذت في هذا الجدل صبغة سياسية لا صبغة دينية ويلاحظ هذا جليا في قول عمر بن الخطاب المتكلم بلسان حزب المهاجرين حين قال : من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، وكذلك قول الحباب بن المنذر المتكلم بلسان حزب الانصار : « املكوا ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا (يعني عمر) وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر »[6] .

وقد تناول بعض المستشرقين موضوع خلافة الرسول بالكثير من التجني

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٠ .
٢ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢٠ .
٣ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٦ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٠ .
٥ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧ .
٦ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٠ .

والمغالاة في تصوير الأحداث . فالاب لامنس في مقاله : « الحكومة الثلاثية » يتهم ابا بكر وعمر وابا عبيدة باتفاقهم في حياة الرسول على تولي الخلافة بالترتيب ؛ وأنهم كانوا يعملون منذ أمد طويل في موضوع خلافة الرسول ، وانهم احتاطوا للأمر بشكل دقيق للوصول اليها »(١) . كذلك فهو يربط بين الأحداث التي جرت منذ مرض الرسول حتى مبايعة ابي بكر ربطاً دقيقاً يوحي للقارىء بأن أعضاء هذا الثلاثي كانوا على أتم اتفاق وأنه « قد جرى توزيع السلطات بين أعضائه ، فعمر كان يمين أبي بكر ، وأبو عبيدة يسراه ، كذلك فعمر هو القاضي وأبو عبيدة القائد »(٢) .

ولكنه يبدو من العسير علينا أن ننفي او نثبت أمر الاتفاق الثلاثي الذي اكده الأب لا منس وحاول دعمه بالكثير من الروايات والوقائع التي كانت عرضة للمناقشة والرد من قبل الدكتورة زاهية قدورة في كتابها « عائشة ام المؤمنين » خاصة فيما يتعلق بدور عائشة في هذا الاتفاق حيث يتهمها بانها بدأت نشاطها السياسي منذ زمن الرسول وأنها كانت تنصر ما يسمى بالحكومة الثلاثية بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، في أن يتولوا الخلافة بالترتيب السابق وأنها كانت تهيء الجو لنجاح هذا الاتفاق في منزل الرسول(٣) ، فهم حاولوا إخراج الرسول في اثناء مرضه الاخير من بيت ميمونة إلى بيت عائشة وبقيت عائشة الشاهدة الوحيدة في الأسبوع الاخير لمرض الرسول(٤) فهي تعتبر ان جميع هذه الادعاءات ينقصها الدليل وأن جميع الأقوال التي رويت عن عائشة في بيعة ابي بكر قد « رويت عن الرسول بعد وفاته وبعد ان بويع ابو بكر وذلك تقوية لمركزه في الخلافة بعد ان وجدت نفسها امام الامر الواقع وتمهيداً لاستخلافه عمر . وبالتالي يكون ادعاء لا منس في انها لعبت دوراً مهماً في

---

١ ـ Lammens, le Triumvirat » Abou Bakr, Omar, Abou Obaida p.115 -116.

٢ ـ **Lammens ,le Triumvirat» «Abou Bakr ,** Abou Obaida P. 139

٣ ـ زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢١٨ .

٤ ـ **Lammens ,le Triumvirat** . Abou Bakr, Omar, Abou Obaida P. 130 -131

استخلاف ابيها وحبكت المؤمرات من اجل ذلك غير صحيح »[1] .

ومهما يكن من امر هذا الحزب فأقطابه من الرجال الثلاثة ، ابو بكر وعمر وابو عبيدة الكتلة الثلاثية التي أدارت شؤون المسلمين والإسلام بعد في المهد واستطاعت بفضل ما أوتيت من وعي ويقظة وحدب على الدعوة من خنق الفتنة في مهدها تلك الفتنة المتمثلة في الصراع على السلطة بين الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، والتي كانت ولاشك ستؤدي الى هدم وحدة المسلمين وتقويض أركان الدولة الاسلامية الفتية . وهذا ما عبر عنه ابو بكر بقوله : « لم أجد من ذلك بدأ خشيت على امة محمد (صلعم) من الفرقة »[2] .

وهناك من يعتبر خلافه أبي بكر « مثالاً لعادة عربية قديمة ينتقل بحسبها منصب رئاسة القبيلة عندما يموت شيخها إلى من كان يتمتع في القبيلة بأعظم النفوذ ، فينتخب كبار القبيلة أحدهم لاملاء المكان الشاغر ويكون محترماً اما لسنه او لنفوذه او لخدماته المجيدة للصالح العام »[3] . فابو عبيدة يخاطب عليا بقوله « انك حديث السن وهؤلاء مشيخة قريش قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى ابا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك ،واشد احتمالاً له واضطلاعاً به »[4] .

كذلك فقد كان ابو بكر من اكثر المقربين الى الرسول وقد اختاره ليهاجر معه من مكة الى المدينة فكان « ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا »[5] . وقد ورد عن رسول الله قوله « لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت ابا بكر ، ولكن أخوه الاسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلاّ سُدّ ، إلاّ باب ابي بكر »[6] .

---

١ ـ زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢٢٣ وللتفصيل انظر المصدر نفسه من ص ٢٢٢ ـ ٢٢٧ .
٢ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧١ .
٣ ـ ارنولد : الخلافة ص ٨ .
٤ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٢ .
٥ ـ القرآن الكريم : سورة التوبة آية ٤٠ .
٦ ـ البخاري : الصحيح ج ٥ ص ٥ .

أما الحزب الثالث فهو الحزب الهاشمي « وهم فرقة علي بن ابي طالب عليه السلام المسمون شيعة علي في زمان النبي (صلعم) وبعده معروفون بانقطاعهم اليه والقول بإمامته »[١] . وهو كحزب المهاجرين يذهب الى ان خلافة الرسول منحصرة في قريش ولكنه لم يذهب في التعميم بل كان يرى أن حق الخلافة منحصر في بني هاشم وعلى التخصيص في علي بن ابي طالب فهو ابن عم الرسول وهو اول الناس إسلاماً وزوج فاطمة بنت النبي (صلعم) هذا بالاضافة الى جهاده وفضله وعلمه التي وضعها في خدمة الدعوة الإسلامية .كذلك فإن اصحاب علي رأوا ان الخلافة ميرأث ادبي ولو كان النبي يورث في ماله لكان أولى به قرابته فكذلك الإرث الادبي[٢] .

وقد كان عنصر القبيلة في حزبي الانصار والمهاجرين قوياً كما رأينا من تكوينهما العام ومن جدلهما في الميدان السياسي اما أعضاء الحزب الهاشمي فكانوا عناصر متباينة المنبت لا تجمع بينها اية وحدة قبلية بخلاف الحزبين السابقين فمنهم الكندي كالمقداد بن الاسود والعبد كسلمان الفارسي والغفاري كأبي ذر جندب بن جنادة الغفاري وعمار بن ياسر العنسي »[٣] . الى جانب غيرهم من عيون المهاجرين والأنصار .

والحزب الهاشمي كالحزبين الآخرين لم يكن ابن ساعته ولو فكرياً على الأقل فقد بدأ التفكير في امر خلافة الرسول اثناء مرضه الاخير كما تشير المصادر . « فالعباس بن عبد المطلب كان قد لقي عليا فقال : إن النبي يقبض ، فاسأله إن كان الأمر لنا بينه وان كان لغيرنا أوصى بنا خيراً »[٤] وفي رواية الطبري « انطلق بنا الى رسول الله فإن كان هذا الأمر فينا علمنا وإن كان في غيرنا أمرنا ، فأوصى بنا

---

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٥ .
٢ - احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٦٦ .
٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٦ .
٤ - ابن هشام : السيره النبوية ج ٤ ص ٣٣٣ .

الناس »[١] فالتفكير في الخلافة كان يشغل أذهان المسلمين نظراً لأهمية هذا المركز من الناحيتين الدينية والسياسية .

ورجال هذا الحرب يستندون في تأييد وجهةنظرهم إلى أحاديث ينسبونها الى النبي (صلعم) منها « ان النبي (صلعم) قد نص عليه وأشار اليه باسمه ونسبه وعينه وقلد الامة امامته ونصبه لهم علماً وعقد له عليهم إمرة المؤمنين وجعله أولى بالناس منهم بأنفسهم في مواطن كثيرة مثل غدير خم وغيره واعلمهم ان منزلته منه منزلة هرون من موسى صلى الله عليهما الاّ انه لا نبي بعده فهذا دليل امامته »[٢] .

وبينما الهاشميون في شغل عما يحدث بين الحزبين السابقين في سقيفة بني ساعدة من الجدل واخذ المبايعة «كانوا يهتمون بتجهيز الرسول[٣] . تقرر مصير الخلافة الاسلامية بمبايعة ابي بكر في السقيفة دون أن يعلم احد من اعضاء الحزب الهاشمي بشيء مما تمّ حينذاك حتى اذا خرج القوم من السقيفة إلى المسجد ، أتاهم نبأ ما توصل إليه المجتمعون . ومما لاشك فيه أن عليا ومن معه فوجئوا بهذا النبأ كأنهم اخذوا على حين غرَّة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك . الاّ العباس بن عبد المطلب فانه كما يبدو لنا من خلال الحاحه على ابن اخيه علي بن ابي طالب في طلب الخلافة دون ابطاء كانه يحس بان في الجو شيئا ، وبأن الأمر يوشك ان يفلت من ابن اخيه ، فهو يقول لعلي : « امدد يدك أبايعك ، يبايعك الناس » . وفي رواية اخرى يقول « يا علي قم حتى أبايعك ومن حضرنا ، فإن هذا الأمر إذا كان ، لم نرد مثله والأمر في أيدينا فقال علي : واحد يطمع فيه غيرنا . قال العباس أظن والله سيكون »[٤] .

وتختلف الأحاديث حول مبايعة علي لأبي بكر بالخلافة . ففي رواية « أن عليا

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٩٤ .
٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٦ .
٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢١٩ .
٤ - ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٤٦ وابن ابي الحديد : شرح النهج ج ١ ص ٦٠ .

كان في بيته اذ أتي فقيل له : قد جلس ابو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ما عليه ازار ولا رداء ، عجلاً ، كراهية أن يبطىء عنها ، حتى بايعه »[1] . وفي رواية اخرى عن الزهري« قال رجل للزهري : أفلم يبايعه علي ستة أشهر ! قال : لا ، ولا أحدٌ من بني هاشم ؛ حتى بايعه عليٌ »[2] . والأرجح أن بيعة علي قد تأخرت بعض الوقت وذلك بسبب سوء العلاقة التي نشأت بين فاطمة وابي بكر بشأن ميراثها من فدك وخيبر وذلك حين ذكر أبو بكر ما سمعه عن الرسول (صلعم) « لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، انما يأكل آل محمد في هذا المال . . . فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت »[3] .

والمصادر تذكر الجدل الذي دار بين الحزب الهاشمي ممثلاً بعلي وحزب المهاجرين حول موضوع الخلافة والصراع على السلطة بمفهومها السياسي وحول أحقية كل فريق في خلافة النبي (صلعم) . فعلي كان يرى أن القوم قد عدوا على حق له ، فسلبوه اياه فيقول مخاطبا ابا بكر : « انا احق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، اخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، ألستم زعمتم للانصار ، إنكم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الامارة . وانا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار »[4] ، كذلك قوله « احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة »[5] من جملة ما احتج به علي على خلافة أبي بكر يريد ان المهاجرين احتجوا بانهم من شجرة النبي (صلعم)فاولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبي أنهم من ثمرة قريش وهم قرابته . وسواء صح هذا القول من علي أم لم يصح فهو تعبير صادق عما في نفسه .

---

١ ـ الط[illegible] : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٧ .
٢ ـ [illegible] ج ٣ ص ٢٠٨ .
٣ ـ [illegible] ج ٣ ص ٢٠٨ .
٤ ـ ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١ وفي الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٨ .
يقول علي لابي بكر « لكنا كنا نرى ان لنا في هذا الامر حقاً ، فاستبددتم به علينا » .
٥ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٤ .

وقد استند الحزب الهاشمي كحزب المهاجرين بالسبق والقرابة حول احقيته بالخلافة ، وكان السلاح الذي شهره علي في سعيه لانتزاع الخلافة من « تيم » رهط أبي بكر واعادتها الى بيت الرسول وآله ، وذلك باستخدامه الرباط المقدس الذي يجمعه بفاطمة ابنة النبي فيربطه بالرسول ويجعله من آل بيته . « فكان يخرج ليلاً راكبا حماراً ويطوف بها على مجالس الأنصار واحيائهم تسألهم النصرة لعلي في قضية الخلافة ولكنهم كانوا يقولون لها « يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل »[1] فالأنصار كانوا قد بايعوا أبا بكر ، والبيعة عند العربي عهد يعطيه فيملكه ولا يستطيع منه فكاكاً ، وهي تدل على ما للكلمة من حرمة وقدسية عند العربي .

على أن علياً بايع ابا بكر ودخل فيما دخل فيه المسلمون . بعد موت فاطمة يقول الطبري في هذا الصدد : « وكان لعلي وجه من الناس حياة فاطمة ، فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عن علي . . فضرع الى مصالحة ابي بكر »[2] .

وبعد فالمتتبع للجدل الذي قام حول مسألة الخلافة والأحاديث المتصلة بها وموقف كل حزب من الأحزاب التي ظهرت على الساحة الإسلامية يستطيع أن يقول : إنّ الاتجاهات الحزبية قد بدت واضحة المعالم بعد وفاة النبي محمد (صلعم) وقد ظهرت من انقسام المسلمين إلى ثلاثة أحزاب .

وكان التزاحم والصراع على السلطة هو المؤثر والمحرك الفعال في كل هذه الاحداث وقد شغلت تلك المسألة السياسية تفكير المسلمين في ذلك العصر ، كما كان للعصبية القبلية الدور الفعال في هذه الاحداث والتي حاول الرسول جهده في محوها من النفوس واحلال الرابطة الدينية مكانها ، ولكننا نراها بعد وفاته قد برزت سافرة عن وجهها ، وعادت لتتحكم في مجرى الأحداث .

---

١ ـ المصدر السابق ج ٦ ص ١٣ .

٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٨ .

فالأنصار عندما اجتمعوا في السقيفة ليبايعوا سعداً إنما لبوا داعي العصبية . فهم كانوا يعلمون بأن في المهاجرين من هو أتقى وأفضل من سعد بن عبادة ، وكذلك الأوس فقد اندفعت بداعي العصبية الى المبادرة لبيعة ابي بكر لتدفع الامارة عن الخزرج ، وجنوح المهاجرين الى هذه العصبية جلي في حججهم يوم السقيفة . فاحتجاج المهاجرين باقوال منسوبة إلى الرسول « الائمة من قريش » انما هو بدافع العصبية القبلية . « فقد رأى الحزب القرشي أن تكون دائرةالاختيار محصورة في قريش لأن العرب اطوع للقرشيين ولأن الخليفة ينبغي ان يكون ذا عصبية تشد ازره وتحمي ظهره ولا قبيلة في العرب أعز من قريش »[1] .

وهذا ما عبر عنه ابن خلدون « ذلك انه لابد في الرئاسة على القوم ، ان تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة ، لان كل عصبية منهم إذا أحسّت بغلبة عصبية الرئيس لهم اقروا بالإذعان والاتباع »[2] كذلك « فإن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ، فكانت سائر العرب تعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم . فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلافة ولا يحملهم على الكره فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة . . . فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكونوا أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة »[3] .

كذلك فالعصبية القبلية هي التي دفعت أبا سفيان إلى أن ينادي بعيد وفاة الرسول (صلعم) «يا آل عبد مناف فيم ابو بكرمن اموركم ويقول ما لنا ولابي فصيل انما هي بنو عبد مناف» وقوله «ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش »[4] يقصد بني مرة رهط ابي بكر . فزعامة قريش كانت في آل عبد مناف أعز قريش قبيلاً واكثرها

---

١ ـ احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٠٨ .
٢ ـ ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣١ .
٣ ـ المصدر السابق : ص ٣٤٦ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٩ .

عددا على اختلاف ذات بينها من هاشمية واموية . اما تيم بن مرة رهط ابـي بكر فكان كما عرفها أبو سفيان أقل حي في قريش . فأبو سفيان الذي حارب ابن عمه الرسول فيما سبق ، انما كانت دعواه بداعي العصبية ، فهو كان ينظر إلى الرسول ومركزه بين قومه نظرة زعيم عربي إلى ابن عم منافس له في الزعامة قد توارثا المنافسة على الزعامة منذ الجاهلية . أما الآن فهو لا يرى أن تخرج الزعامة من بيت ابن عمه إلى بيت قصي عنه ، بعد أن خرجت من بيته لذلك فهو يقول لعلي :

بنـــي هاشم لاتطمعواالناس فيكمُ ولاسيما تيم بن مرة او عدي

فما الامــر إلاّ فيكم واليكمُ وليس لهــا الاّ ابــو حســن علي[١]

ويقول لعلي ايضا : ابا حسن ابسط يدك حتى أبايعك فهو الآن يحقق المثل الشعبي المعروف : « مع اخيه وابن عمه على الغريب » ولكن التفاهم عاد فتمَّ بين ابي سفيان وبين الحزب الحاكم ، بعد تعيين ابنه يزيد امـيراً على الجيش الغـازي سورية فقيل له : « انه قد ولى ابنك ؛ قال : وصلته رحم »[٢] .

وقد كثرت الأحاديث والأقوال المنسوبة إلى كل حزب من هذه الأحزاب في احقية كل منهم في الخلافـة . وجميع هذه الأحـاديث ترجـح عندنـا أن النبـي لم يستخلف احداً بشكل صريح ولم يجعل الخلافة في بيت مخصوص وان اختلاف الأمة في مسألة الخلافة ، انما نشأ من فقدان النصوص الصريحة .

ولعل اجماع المسلمين يومئذ على جعل الخلافة في قريش كان في سبيل المصلحة العامة ، ذلك ان العرب كانت تقرُّ لقريش تقدمها ورئاستها والمقصود من اختيارها حين ندبت للخلافة العصبية ، لأنها كانت صاحبة العصبية اي الكلمة المسموعة .

واما اختيار أبي بكر دون علي فربما كانت الغاية منه الفصل بين بيت النبـوة

---

١ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٧ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٩ .

وبيت الخلافة حتى لا تكون شبهة توحد بين السلطتين وتربط بينهما ربطاً دينياً أبدياً ، كما ورد على لسان عمر بن الخطاب في حديثه لعبدالله بن عباس « إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً ، بجحاً فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت »[1] .

كذلك فقد رأت الزيدية في إمامة ابي بكر « ان الخلافة فوضت الى ابي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها في تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة ، فان عهد الحروب التي جرت في ايام النبوة كان قريباً ، وسيف امير المؤمنين علي عليه السلام من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة ان يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الاسلام والقرب من رسول الله »[2] .

كذلك فمن المستشرقين من رأى أثر العصبية القبلية والشعور القبلي في عدم تعيين النبي (صلعم) خلفاً له لأنه « كان يدرك قوة الشعور القبلي العربي الذي لا يعترف بمبدأ الوراثة في اشكال حياته السياسية البدائية ، بل كان يترك لأعضاء القبيلة أمر انتقاء اميرهم الخاص »[3] .

وهكذا فاننا نرى أن مشكلة الخلافة الإسلامية في ذلك العصر قد فتحت ابواب الصراع بين المسلمين على السلطة بمفهومها السياسي وإن كان الدين ستاراً صبغ هذه الخلافات «فأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان »[4] وهكذا « فان بيعة

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٢٣ وقريباً منه ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٢ ص ٥٣ .
٢ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .
٣ ـ ارنولد : الخلافة ص ٧ .
٤ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣ .

ابى بكر كانت فلتة. . . غير ان الله وقى شرها »[1] ، وكانت مقدماتها الأولى كنتائجها ذات طابع سياسي ، يتلخص في اختيار شخص دون آخر لتسلم مقاليد زمام الخلافة ، وأدت من ثم إلى ظهور الأحزاب السياسية في المجتمع الاسلامي . وكانت العصبية سيدة الموقف فيها .

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٥ .

الفَصل الثالِث

الأبعاد الحزبية في عهدي ابي بكر وعمر

في عهد ابي بكر

ما كاد ابو بكر يفرغ من مشكلة المبايعة بالخلافة حتى واجه مشكلة الردة التي كانت من أخطر الانتكاسات التي واجهت المسلمين ، وهدّدت كيان الدولة الاسلامية الفتية . فقد كانت الردة نوعاً من الانتكاس الديني والسياسي تورط فيه العرب قبيل وفاة الرسول (ﷺ) وفي بداية عهد ابي بكر .

ففي حياة الرسول (ﷺ) ارتد بعض المسلمين ، كعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي « أسلم وهاجر إلى المدينة وكتب الوحي لرسول الله ، ثم ارتد مشركاً وصار إلى قريش بمكة . فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه « وأمر بقتله ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة ، ففر عبد الله الى عثمان ، وكان اخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله (ﷺ) فاستأمنه » . كذلك عبد الله بن خطل الذي كان مسلماً وارتد مشركاً[1] وعبيد الله بن جحش زوج ام حبيبة فإنه « أسلم معها

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٥٩ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٩ .

وهاجر إلى الحبشة فتنصر هو ومات على نصرانيته »[1] وعلقمة بن علاقة وكان أسلم ثم ارتد في زمن النبي (ﷺ) ولحق بالشام بعد فتح الطائف[2] .

كذلك فإن فريقاً من العرب أظهروا الردة قبل وفاة النبي (ﷺ) فظهر بينهم بدع جديد هو التنبؤ ،لا لأنهم ضاقوا بالزكاة وآثروا المال على الدين بل « لأنهم نفسوا على قريش ان تكون فيها النبوة ، وان يهيأ لها ما هيء من هذا السلطان بما له من قوة وبأس وهكذا فقد غلب مسيلمة على اليمامة ، والاسود على اليمن . . . وادعى طليحة النبوة وعسكر بسميراء »[3] . ولكن الامر ازداد سوءاً في الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول (ﷺ) ، ذلك ان معظم القبائل العربية ارتدت عن الاسلام باستثناء قريش وثقيف[4] . وهكذا كان على الخليفة الاول ان يواجه هذا الوضع الخطير في حياة الدولة الاسلامية . على ان ابا بكر كان رجل الساعة ، وشديد الثقة بمستقبل الاسلام ، فلم يضعف امام هذا الخطر ، برغم عدم وجود الجيش اللازم لديه حينذاك ، اذ انه كان قد استجاب لرغبة الرسول فانفذ الجيش الى بلاد الشام بقيادةاسامة بن زيد بن حارقة[5]. وقد بعث انتصار اسامةالبشر في نفوس اهل المدينة بعد ان احزنتهم حروب الردة واصبح لانتصاره من الاهمية حيث اعتبر فيما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام .

وبعد عودة جيش اسامة سار ابو بكر بنفسه الى ذي القصة لمحاربة القبائل من عبس وذبيان وطيء الذي دخلوا في حلف بني اسد وعلى رأسهم طليحة الاسدي فانتصر عليهم وغلب علي بني ذبيان واجلاهم عن بلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم . وقد كانت هذه الحملة « اول الفتح »[6] . وتتابعت انتصارات المسلمين واستطاعوا القضاء على المرتدين وقد كان موقف ابي بكر

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٦٥ .
٢ ـ ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٦ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والموك ج ٣ ص ١٨٦ .
٤ ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٤٢ .
٥ ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٢٥ .
٦ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٣٣ .

حازماً من تلك الثورات لانه وجد فيها خطراً يهدد كيان الدولة الاسلامية الناشئة كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة تهدد بعودة العرب سيرتها الأولى في الجاهلية من التنابذ والفرقة وغيرهما من الأمور التي من شأنها ان تزعزع اركان الدين الاسلامي . وكان موقفه من رؤساء القبائل المرتدة واشرافها مستوحى من روح الاسلام ومقتضيات التدبير السياسي معاً « فقتل منهم من قتل وعفا عن طائفة منهم واصطنعهم كالأشعث بن قيس الكندي »[١] .

ويقول « ميور » عن أسباب نجاح المسلمين في القضاء على المرتدين : « وانما يرجع الفضل في تتويج هذه الجهود بالنصر والظفر الى تلك الروح القوية التي بثها محمد في نفوس أتباعه المخلصين »[٢] .

ولكن هل كانت حركة الردة ردة دينية ؟ ام كانت لها أبعاد حزبية ؟

فالحقيقة أن الردة لم تكن دينية فقط بل من الواجب أن نفرق بين نوعين من المرتدين : « فأكثر المرتدين الذين ارتدوا في عهد الصحابة انما ارتدوا باسقاط وجوب الزكاة ، وهم المرتدون من بني كندة وتميم . أما الفريق الثاني منهم الذين كفروا من وجهين ؛ أحدهما اسقاط وجوب الزكاة والثاني دعواهم نبوة مسيلمة وطليحة ، واكثر المرتدين من بني حنيفة وبني أسد »[٣] .

ذلك انه بعد انتشار خبر وفاة الرسول (ﷺ) تربص العرب واشرأبت أعناق الجميع الى المدينة يتنسمون أخبارها . واذا بهم يسمعون أخبار بيعة ابي بكر وما جرى يومذاك بأوسع مما بلغنا فبلغهم تناحر اصحاب الرسول (ﷺ) على البيعة ، وتأخر عامة بني هاشم ثم رهط النبي (ﷺ) ، وامتناع سعد بن عبادة رئيس الخزرج عنها ، الى غير ذلك مما وقع في ذلك الوقت . لذلك « اعتزلت فرقة عن ابي بكر فقالت لا نؤدي الزكاة اليه حتى يصح عندنا لمن الأمر ، ومن

---

١ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

٢ ـ Muir The Caliphate P. 81 .

٣ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٣١ .

استخلفه رسول الله (ﷺ) بعد ونقسم الزكاة بين فقرائنا وأهل الحاجة منا »[1]

ففي الواقع ان الدوافع الدينية لم تكن مسؤولة عن هذه الموجة الاّ نادراً وكل ما في الأمر أن بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتبعة في المدينة ، فأعلن بعض المرتدين انهم لايزالون راغبين في ان يعبدوا الله ولكنهم يرفضون أن يدفعو الزكاة لغير النبي : « فقد حسبت قبائل العرب انها انما بايعت للنبي (ﷺ) فحسب وساد بين العرب الرأي القائل بان هذه البيعة لا تربط صاحبها الاّ بشخص من أعطيت له . فبعد أن توفي النبي (ﷺ) ارتدوا عن الاسلام لكن ارتدادهم لم يكن عن الإيمان بالله بل هم ارادوا التنصل من حكومة المدنية »[2] .

ذلك ان كثيراً من قبائل العرب عدّوا دفع الزكاة للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا إليها نظرتهم الى قبيلة تتسلط على أخرى وتضرب عليها الاتاوة فانتهزوا موت الرسول (ﷺ) وعبروا عن شعورهم الجاهلي برفض دفعها لابي بكر . وفي هذا يقول قرة بن هبيرة لعمرو بن العاص : « يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة فان أنتم اعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم »[3] .

فقد ادركت هذه القبائل بان تولي أحد القرشيين الخلافة معناه التسليم بحق قريش في الاستئثار بالأمر دون سائر القبائل العرب ولئن ارتضت هذه القبائل الإذعان للرسول فإنما لنبوته وليس لقرشيته وقد عبّر الحطيئة عن شعورهم هذا في قوله يخاطب قومه ويحثهم على الإرتداد :

اطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[4]

---

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٤ .

٢ - فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢٢ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٥٩ .

٤ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني مجلد ٢ ص ٧٧ ، والمبرد : الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ٢٣٢ .

فقد كرهت هذه القبائل سيادة قريش وظنوا انها قد سلبتهم حريتهم وادخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين وكرهوا ان يؤدوا الضريبة الى قبيلة من القبائل العربية وهي قريش ، وإلى رجل يعينه من هذه القبيلة وهو ابو بكر . واعتبروا انه من المحتمل إذن ان يحكم من يخلف الرسول (ﷺ) هواه واهله وعشيرته في الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلي مركز الخلافة من شأن القبيلة التي ينتمي اليها الخليفة ويغض من شأن غيرها من القبائل . هذا هو الشعور الذي شاع في القبائل التي ارتدت عن الاسلام . وكانت العصبية هي التي دفعتهم للإرتداد عن دين الله من أجل ابعاد منصب الخلافة عنهم .

ويعلق الدكتور طه حسين على أسباب هذه الردة بقوله : « فقد نفست قحطان على عدنان ان يكون لها نبيٌ من دونها ، فظهر فيها الأسود العنسي . ونفست ربيعة على مضر ان تستأثر من دونها بالنبوة ، ونفست اسد وتميم المضريتان ان تستأثر قريش بالنبوة من دون سائر مضر ، فظهر طليحة في بني اسد وظهرت سجاح في بني تميم »[1] .

وهكذا فالعصبية القبلية هي التي دفعت هذه القبائل الى ادعاء النبوة[2] . وذلك تحللاً من شعائر الدين وتقاليد الحكومة القرشيّة ، وخروجاً على هذا النظام السياسي الذي يخضع البدو لسلطة المدينة او لقريش[3] .

كذلك فان تعلق افراد القبائل العربية بالحرية الجاهلية وطمع رؤسائهم في السيادة ، التي تمتعهم بسلطان ما في بعض أنحاء الجزيرة العربية هي التي دفعتهم الى الإرتداد . وقد اتخذوا لذلك وسائل شتى : كالنبوة ، والثورة ، ومنع الزكاة

---

١ ـ طه حسين : الخلفاء الراشدون مجلد ٤ ص ١٤ .

٢ ـ ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٢ « كان طليحة بن خويلد من بني اسد بن خزيمة قد تنبأ في حياة الرسول . . . وتبعه كثير من العرب عصبية فلهذا كان اكثر اتباعه من اسد وغطفان وطني » .

٣ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ٢٣١ : « . . . ارتدت غطفان تبعاً لعينية ابن حصن فانه قال بنبي من الحليفين يعني اسد وغطفان احب الينا من نبي من قريش » .

وطرد ولاة الحكومة ومهاجمة المدينة نفسها[1] .

وقد اتخذ بعض المستشرقين (كفان فلوتن) ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام بعد وفاة الرسول (ﷺ) دليلاً على أن الاسلام قام بحد السيف ، وان الخوف وحده هو الذي ادخل العرب في هذا الدين[2] . وواقع الحال يشير إلى ان فريقاً من العرب الذين ارتدوا عن الاسلام لم يكونوا مسلمين حقاً لأن السواد الاعظم منهم كان من هؤلاء الاعراب الذين لم يؤثر الدين في قلوبهم : « قالت الأعراب آمنا ، قل لن تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم »[3] « والأعراب اشد كفراً ونفاقاً واجدر الاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله »[4] .

وهناك من يرى « ان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشاراً واسعاً بعد وفاة الرسول مباشرة دليل على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للاسلام وان قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف اكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية »[5] ، وهذا القول ينطبق على الأعراب ايضاً .

وهكذا فإن ما وصف بالردة في عصر أبي بكر لم يكن بالارتداد عن الاسلام . وانما كانت قضية تتعلق بالخلافة من جهة وبيعة ابي بكر من جهة ثانية ومرد هذين الامرين سياسي لا شأن للدين فيه . و إن المعارضين من القبائل العربية لبيعة ابي بكر دفعتهم عصبيتهم القبلية الى معارضة قريش التي سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين . فالردة اذن كانت سياسية تهدف الى الثورة على فكرة السلطة المركزية في الحكم وعلى العصبية القبلية المتمثلة في قريش والتي تعارض فكرة استقلالية القبائل وتفرض عليهم اعباء مالية لا عهد لهم

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ وابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٢ .
٢ ـ فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٥ ـ ٦ .
٣ ـ القرآن الكريم : سورة الحجرات آية ١٤ .
٤ ـ المصدر السابق : سورة التوبة آية ٩٧ .
٥ ـ ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٣ .

بمثلها من قبل كدفع الزكاة مثلا .

وهكذا نلاحظ في حركة الردة ظهور اتجاهين حزبيين في هذه الفترة من خلافة ابي بكر . الاتجاه الاول يتمثل في ظاهرة القبائل العربية التي عارضت البيعة لابي بكر او اعترضت على الخلافة في قريش بالذات مدفوعة بالعصبية القبلية . وبالرغم من تعدد تلك القبائل واختلاف عصبياتها فانها كانت تشكل اتجاهاً حزبيا موحداً يتمثل في معارضة سلطة المدينة المتمثلة بقريش . وبالمقابل كان الاتجاه الآخر المتمثل في السلطة الشرعية ، سلطة المدينة او سلطة قريش . ولكن فكرة الحزبية السياسية لم تظهر بشكل واضح ودقيق في هذه المرحلة ايضاً لان الحروب التي شنت ضد المرتدين من دون هوادة ، والتي تمكنت من اخضاعهم لم توفر لهذه القبائل المرتدة اثبات وجودها وتركيز اتجاهاتها الحزبية .

ولا يخفى انه كان لظاهرة الردة وما رافقتها من حروب واحداث اثر في تشكيل المجتمع الاسلامي فيما بعد . ذلك ان المجتمع انقسم الى فئتين : فئة الذين ارتدوا عن الاسلام ثم اعيدوا الى حظيرته وبقي شيء من الحذر لدى السلطة في التعامل معهم وفئة الذين ثبتوا على الاسلام وحاربوا من اجله ، وكانت السلطة تنظر الى التعامل معهم بعين الثقة .

وهكذا نجد في عهد الخليفة الاول ان السياسة الاسلامية شهدت لوناً من الحذر في تقبل المرتدين واندماجهم في المجتمع الاسلامي . ويحدثنا الشعبي أن ابا بكر « كان لا يستعين في حربه باحد من أهل الردة حتى مات »[1] كذلك فقد كتب إلى عماله : « لا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو »[2] .

اما الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فيتجه بالمرتدين وجهة جديدة اذ يأذن لهم ان يشاركوا في الحرب ، وأن يكونوا في الجند ، ثم يحدد سلطانهم في خطوة اخرى بما دون المائة ويكتب الى سعد : « ان لا يولي رؤساء اهل الردة على

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٣٤٧ .

هائة »[1] على ان الخليفة الثالث عثمان يسقط عنهم آخر اثار العقوبة فيأذن « باستعمال من كان ارتد استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فساداً ان سادهم من طلب الدنيا ، وعضّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :

وكنت وعمراً كالمسمن كَلْبَـــــــــهُ   فَخَدّشَهُ انيـأبه واظـافِــــــرُهْ »[2]

ولا يخفى ان هذه الفئة التي ارتدت عن الاسلام واتخذت لها العراق مقراً سيكون لها دور في احداث العراق الثورية في العصر الاموي .

ولكنه بقمع حركة الردة خفت صوت العصبية شيئاً فشيئاً وادرك زعماء القبائل العربية الذين كانوا يحلمون باسترجاع امجادهم القدمية ، ان الدولة الاسلامية اصبحت وطيدة الاركان وان عهد الاستقلال القبلي الذي لا يعترف بسلطان فوق سلطان القبيلة قد انقضى ، وان فضل قريش على سائر القبائل العربية لا سبيل الى دفعه والاعتراض عليه فلم يسعهم الاّ الاذعان للامر الواقع فاخذوا يتنافسون في اظهار ولائهم للدولة القائمة للاحتفاظ بمناصب السيادة في قومهم . ومثل هذا الامر يحدث في ظل المجتمعات المتكاملة ذات السلطة النظامية .

في عهد عمر بن الخطاب

ما ان انتهت حروب الردة حتى اندفع المسلمون خارج الجزيرة العربية حيث قاموا بالفتوحات في فارس وبلاد الروم . وقد بلغت هذه الفتوحات اوجها في ايام عمر بن الخطاب الذي شغّل العرب بالفتوحات الخارجية مستغلا اندفاعهم منذ الجاهلية ، وايام الرسول ، وخليفته الأول ، واشغالاً لهم عن التناحر فيما بينهم إذا ما فرغوا لأنفسهم فيعود بأسهم بينهم شديداً[3] ، وبذلك يتحقق هدف الإسلام ورسالته العامة .

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٣ ص ٥٥٧ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ١٥٨ .
٣ ـ Lammens. Le berceau de l'islam PP. 175- 77 .

ولكن الملاحظ في هذه الفتوحات ان عمر بن الخطاب قد استثنى قريشاً منها ومنع رؤساءها من ترك المدينة وحصرهم فيها . فهو يقول : « اخوف ما اخاف على هذه الامة انتشاركم ، فإذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه : قد كان لك من غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك »[1] . فقد خاف عمر على قريش من استثمار الاستئثار السياسي بالإمارة في الثراء ، وحيازه الاقطاعات ، فحصرهم في المدينة حتى ولو كانت مغادرتهم لها تحت شعار الجهاد في سبيل الله مخافة ان يكوّنوا لهم عصبيات اسلامية في اقطار الدولة فتتشقق وحدتها وتتداعى اركانها وهي قريبة العهد بالتنابذ الجاهلي . على ان عمر بن الخطاب لم يميز قريشاً فقط عن سائر افراد المجتمع الإسلامي بل كان اول خليفة فضل العرب وجعل لهم ميزة على سواهم ومنع من سبيهم فهو يقول : « قبيح بالعرب ان يملكوا بعضهم بعضاً وقد وسع الله عز وجل وفتح الأعاجم . لذلك فقد فدى سبايا العرب منذ الجاهلية والإسلام[2] . كذلك فهو يوصي عماله على الاقاليم بقوله : « .... ولا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها فتفتنوها ولا تقفلوا عنها فتحرموها »[3] .

كما كان عمر بن الخطاب يوصي العرب بحفظ انسابهم لئلا تضيع عصبيتهم : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اصله قال ، من قرية كذا »[4] وهكذا « فان عمر قد خلق روحاً معينا عند العرب جعلهم ارستقراطية الاسلام »[5] فالدولة الاسلامية كانت تشتمل على طبقتين من المواطنين متمايزتين من الناحيتين السياسية والدينية . وكان سادة هذه الدولة هم العرب . اما الطبقة الثانية فهي طبقة غير العرب وهم الرعايا الخاضعون . وقد

---

١ - ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٩١ .
٢ - المصدر السابق : ج ٢ ص ٢٦٠ .
٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٠٤ .
٤ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .
٥ - زاهية قدورة : الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي ص ٣٩ .

كان لهذا التميز في المجتمع الاسلامي اثره في خلق طبقة مميزة تتمتع بالنفوذ واسيطرة وتتعالى على سواها . وهذا مظهر من مظاهر العصبية ، ولكن هذه العصبية ذات الصبغة العربية ادت فيما بعد الى نشوء عصبية تواجهها هي عصبية الموالي من غير العرب . وقد اتخذ هذا التمييز له مركزاً جلياً في عهد عثمان وفي عصر بني امية خاصة .

والملاحظ ايضاً ان المسلمين في حروب الفتوحات ، استفادوا من النظام القبلي في الاغراض الحربية ، فقسموا الجيش على اساس القبائل واسكنوا المستعمرين في الأراضي المفتوحة على أساس القبائل ايضاً[1] . فهذه القبائل التي شاركت في الفتوحات اخذت تتجمع في الحواضر والامصار وتستقر جنباً الى جنب وترتبط فيما بينها ، بأنواع من الروابط الجديدة كالجوار والعطاء والمسجد ؛ فتكونت من ذلك كتل جديدة كبيرة وهي التي يسميها المؤرخون الاسباع[2] . فالتنظيم الاداري والحربي كان ملزماً بمراعاة الإعتبارات القبلية ، فقد قام تخطيط الأمصار على أساس القبائل . ففي تخطيط الكوفة روعي انقسام العرب الى أصلين : نزاري ويماني . فقد ذكر المؤرخون « ان سعد بن ابي وقاص حين اختط الكوفة اسهم لنزار واهل اليمن ، فخرج سهم اهل اليمن في الجانب الشرقي وسهم نزار في الجانب الغربي »[3] « ثم اختط كل فريق جزءاً من ارضه حسب القبائل »[4] وقد ادى هذ الاحتكاك بين القبائل العربية في الأمصار المفتوحة إلى إثارة الروح القبلية والعصبيات منذ عهد عثمان . ذلك أن العرب حين رحلوا الى العراق كانوا يحملون في نفوسهم بعضاً من العصبية القبلية التي لم تمح نهائياً . وقد تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التي سكنوها . فعرب الكوفة ومواليها يتعصبون للكوفة ، وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة .

---

١ ـ حتّي ـ تاريخ العرب المطول ص ٣٥ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٨ .
٣ ـ البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٥ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥ .

وهكذا نشأت عصبية من نوع جديد ، هي عصبية الأمصار المفتوحة وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد بين قبائل تلك الأمصار . فكان عرب الكوفة اذا قاتلوا عرب البصرة انحازت كل قبيلة ناحية وقاتلت مثيلتها من الجانب الآخر ، فيمن الكوفة يقاتلون يمن البصرة او ربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، ومضر الكوفة تقاتل مضر البصرة[١] .

كذلك فان وضع ديوان العطاء ايام عمر كان له اثر كبير من طريق غير مباشر في ظهور العصبيات وتحدد معالمها وخطوطها البارزة . فحين فرض عمر بن الخطاب العطاء في سنة عشرين للهجرة[٢] لم يسو بين المسلمين في العطاء كما فعل النبي (ﷺ) وابو بكر ، بل جرى على مبدأ التفضيل : « ففضل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين وفضل المهاجرين كافة على الانصار كافة ، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على الموالي »[٣] « وفضل الاوس على الخزرج »[٤] . وقد استدعى هذا المبدأ في العطاء تصنيف الناس على قبائلهم واصولهم فنشط النسابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها وبذلك تحددت معالم العدنانية واليمانية .

« ففي ديوان اعطيات الجند كان الجند اما عربا او عجماً . فالعرب مثلاً عدنان وقحطان ، فكانوا يقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم وعدنان يجمع ربيعة ومضر ، فتقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش فتقدم قريش لان النبوة منهم ، وقريش تجمع بني هاشم وبني امية وغيرهم فيقدم بنو هاشم لان النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ثم يليهم من أقرب الأنساب »[٥] . وهكذا فقد كان لهذا التدوين اثره في عناية القبائل

---

١ ـ الطبري : تاريخ مرسل المملوك : ج ٤ ص ٥٠٦ .
٢ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٤٤ .
٣ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٨ ص ١١١ .
٤ ـ البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٧ « ثم انتهى الى الانصار فقالوا بمن نبدأ قال : « ابدؤا برهط سعد ابن معاذ من الاوس ثم الاقرب فالاقرب لسعد » .
٥ ـ زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٧٠ .

بانسابها وحرصها على تدوينها ، وهذا قد ادى من طريق غير مباشر إلى ظهور الروابط القبلية وبالتالي الى ظهور العصبية القبلية فيما بعد ، لأنه وضع حجر الأساس في تكوين الطبقات في المجتمع الاسلامي وأوجد نوعاً من الارستقراطية لدى قريش حيث يدفعها نسبها الكريم الى الإستعلاء والتباهي والاستئثار في كثير من المواقف .

واذا كان التفضيل في العطاء قد خلق شعوراً بالإمتياز والتفرد لدى قريش فان الشورى التي اقترحها عمر قد أثارت في نفوس الكثير من الاشخاص البارزين في قريش وفي نفوس انصارهم آنذاك مطامح سياسية . « فقد جعل عمر الشورى في ستة نفر من قريش »(١) وكلهم مرشح للخلافة . « وقد نشأ بين افراد هذه الارستقراطية الاسلامية الحقيقية التي تتألف من الصحابة اخطر تنافس فقامت عند ذلك مشكلة الخلافة من جديد »(٢) ذلك ان مركز الخلافة بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتدفق الاموال من ارجاء الدولة الاسلامية « اكداساً فلا يدري عمر ايعدها عداً ام يكيلها كيلاً »(٣) اصبح مأرباً يطمح اليه كل واحد من الصحابة فلا عجب بعد ذلك ان يختلف أهل الشورى وان يشتد بينهم النزاع ؛ إذ كل منهم يريد أن تكون الخلافة له ؛ فعمر بن الخطاب يخاطب اهل الشورى وهو على فراشه يجود بانفاسه : « اكلكم يطمع في الخلافة بعدي ! فوجموا ، فقال لهم ثانية ، فاجابه الزبير وقال : وما الذي يبعدنا عنها ! وليتها انت فقمت بها ولسنا دونك في قريش ، ولا في السابقة ولا في القرابة »(٤) .

وإذا بالمجتمع الاسلامي يجد نفسه غارقاً في فتنة التنافس والصراع على

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٢٨ . (قال عمر : عليكم هؤلاء الرهط الذي قال رسول الله (ﷺ) : « انهم من اهل الجنة » علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله (ﷺ) والزبير بن عوام حوارى رسول الله (ﷺ) وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله فليختاروا منهم رجلاً » .

٢ ـ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٨ .

٣ ـ ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٤٥ .

٤ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٨٥ .

السلطة ، وكل فرد منه يفتش عمّا يدعم اتجاهه وميله وينبش اوراق النسب والحسب القديمة مما ذهب ريحه مع القبلية الجاهلية .

الباب الثالث

وضوح الرؤية الحزبية

الفصـل الأول

الفتنة الكبرى وأبعادها الحزبية

تفاقم الخلاف في الإسلام وبرز بشكله الحادّ مع الثورة على عثمان ضد فساد الحكم وظلمه . فالأحداث التي أدت الى مصرع الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ، فتحت أبواب الفتنة بين المسلمين على مصراعيها وأدت من ثم إلى وضوح الرؤية الحزبية في المجتمع الاسلامي .

« فقد اختلف المسلمون في أمر عثمان لأشياء نقموها عليه ، حتى أقدم لاجلها ظالموهُ على قتله . ثم اختلفوا بعد قتله في قاتليه وخاذليه اختلافا باقيا الى يومنا هذا »[1] وقد كان للفتنة أسباب كثيرة نشأت من عدة عوامل يمكن تقسيمها إلى ثلاثة :

١ ـ أسباب أخذها الناس على عثمان الخليفة الراشدي الثالث وطريقة حكمه .

٢ ـ أسباب فرضتها ظروف الدولة وطبيعة التحول الاجتماعي في ذلك العصر .

---

١ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤ .

٣ ـ نشاط الفئات السرِّية المعادية لخلافة عثمان .

فقد ظهر التنافس والصراع على السلطة بين اعضاء اهل الشورى حين ارادوا اختيار واحد منهم لمركز الخلافة : « فأقبلوا يتجادلون عليها (اي الخلافة) وكلهم بها ضنين وعليها حريص اما لدينا واما لآخرة »[١] . « فقد تنافس القوم في الامر وكثر بينهم الكلام كل يرى أنه احق بالأمر »[٢] . ولكن الواضح من المناقشات التي دارت بين اعضاء الشورى ان التنافس قد انحصر بين علي وعثمان ونرى هذا التنافس واضحاً ، « لما مات عمر واخرجت جنازته تصدى علي وعثمان : ايهما يصلي عليه فقال عبد الرحمن : كلاكما يحب الامارة لستما من هذا في شيء ، هذا إلى صهيب »[٣] .

فبعد وفاة عمر بن الخطاب ظهرت بوادر الإنقسام بين أنصار علي وأنصار عثمان اثناء الشورى التي اقترحها عمر . « إذ قام عمار بن ياسر فقال : إن أردت الا يختلف الناس فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار إن بايعت عليا قلنا سمعاً واطعنا . فقام عبد الله بن ابي سرح وقال : إن أردت الا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة : صدق عبد الله ، إن بايعت عثمان قلنا سمعاً واطعنا »[٤] . وهكذا فالتنافس على السلطة الذي كان بين علي وعثمان تعداهما الى انصار كل منهما ، وظهرت الحزبية في انقسام المسلمين الى امويين يناصرون عثمان وهاشميين او علويين يناصرون عليا .

وقد سيطر منطق السقيفة القبلي في الجدل الذي دار بين اعضاء الشورى والذي سبق البيعة لعثمان ، وبدا واضحاً أن قريشاً اعتبرت الخلافة مؤسسة من مؤسساتها ، وشأنا من شؤونها الخاصة ، ليس لأي من المسلمين ان يتقدم برأي فيها . فهذا رجل من بني مخزوم يقول لعمار بن ابي سرح : « وما انت وتأمير قريش

---

١ ـ ابن ابي الحديد :شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٥١ .
٢ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٧٧ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٣٠ .
٤ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

لأنفسها » وهذا عمار بن ابي سرح يقول : « إن أردت ألاّ تختلف قريش فبايع عثمان »[1] . ولكن الخلافة آلت الى عثمان والى استيلاء الأمويين على الحكم فيما بعد . وقد عبّر علي عن نتيجة الشورى لمصلحة عثمان بقوله : « ان الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : « ان ولي عليكم بني هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم »[2] .

ومهما يكن من امر الشورى فان وصول عثمان بن عفان الى الخلافة قد حصل نتيجة تأثيرات سياسية وشخصية ، فهو من امية ، كما انه منصرف عن الدنيا لين الجانب ، وربما يكون الناس في ذلك الحين قد رغبوا في الانصراف عن الشدة والبطش والقوة ، « قال الزهري : ولي عثمان الخلافة أثنتي عشرة سنة يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً ، وانه لا حب الى قريش من عمر بن الخطاب ، لان عمر كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لآن لهم ووصلهم »[3] .

« لذلك فقد تخطى اصحاب الشورى السته هم ايضاً عليا لانهم لم يشاءوا ان يعترفوا له بأنه صاحب الحق الأول ، فانتخبوا الصحابي المسن عثمان بن عفان من بيت امية »[4] .

وهناك من يرى ان اختيار اعضاء مجلس الشورى لعثمان لانهم « آثروا اختياره رغبة منهم في ان يروا على رأس المسلمين رجلاً يستطيعون توجيهه والتعامل معه بسهولة ويسر »[5].

وقد كان للشورى الاثر الكبير في نشوء الاحزاب القائمة على الولاء لاشخاص معينين لديهم اهداف شخصية في الوصول الى الحكم ، وهو ما عبر عنه

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٣٣ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٣٣ .
٣ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .
٤ ـ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٨ ـ ٣٩ .
٥ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١١٠

معاوية بن أبي سفيان حين بعث إلى زياد بن حصين يسأله : قال « اخبرني ما الذي شتت امر المسلمين وفرق اهواءهم وخالف بينهم . . . قال معاوية : انه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم ولا خالف بينهم الاّ الشورى التي جعلها عمر الى سته نفر . . . فلم يكن رجل منهم الاّ رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلعت الى ذلك نفسه ولو أن عُمر آستخلف عليهم كما استخلف ابو بكر ما كان في ذلك اختلاف »[1] .

وكان اول ما عرض لعثمان في بدء خلافته قصة عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة . وقد عفا عثمان عن عبيد الله وقال : « انا وليّهم وقد جعلتها دية واحتملتها من مالي »[2] . ففي هذا العفو يظهر التمييز بين المسلمين كعرب في معاملة الخليفة لعبيد الله أو كعجم في معاملته للهرمزان . وهكذا فقد استمر العرب عامة والمهاجرون خاصة ، يتمتعون بامتيازات خاصة ويعاملون بصورة مختلفة عن سائر أفراد المجتمع الاسلامي ولا يخفى أن مثل هذا الأمر يعتبر مظهراً من مظاهر العصبية للعرب .

والأمر الذي كان يخشاه عمر ويجاهد للحيلولة دون وقوعه ، حدث منذ أن ولي عثمان الخلافة ؛ فلقد استأثرت قريش بالسلطة سواء فيما يتعلق بالخلافة العامة ام في ولاية أمور الناس في الأقاليم والإمارت . « فقد كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الاّ بأذن وأجل فشكوه فبلغهُ فقام فقال : . . . . . . ألآ وإن قريشاً يريدون أنْ يتخذوا مال الله معونات دون عباده ؛ ألآ فأما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة ، اخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار »[3] . فقد اتبع عمر في معاملته لقريش سياسة شديدة ذلك أنه « لم يخف الفتنة من أحد كما خافها من قريش ولم يخف الفتنة على أحد كما خافها على قريش . وهو من اجل هذا آثر الاحتياط كل الاحتياط في

١ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٨١ .
٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٣٩ .
٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٩٦ .

سياستها ، فلم يلن لها ولم يرفق بها ولم يخلّ بينها وبين طمعها الشديد وهمها البعيد واعتدادها بنفسها وازدرائها لغيرها من الناس »[1] .

أما عثمان فقد فتح باب الهجرة أمام أعلام قريش وسمح لهم أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية المفتوحة كالعراق والشام ومصر ، كما سمح لهم ان يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار . «إن عثمان جمع أهل المدينة فقال : يا اهل المدينة ، ان الناس يتمخضون بالفتنة ، واني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إنْ رأيتم ذلك ، فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم في بلاده ؟ فقام أولئك وقالوا : كيف ننقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ قال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به امراً لم يكن في حسابهم ، فافترقوا وقد فرجها الله عنهم به »[2] .

فقد خرج سادة قريش إلى الأقاليم النائية عن الحجاز وانشأوا لأنفسهم ارستقراطية دينية ، كان للمال وصحبة الرسول أثرهما في اجتماع الناس حولهم ومناصرتهم . ذلك أنه«لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش اموالاً في الأمصار ، وانقطع اليهم الناس وثبتوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم »[3] .

وقد ذكرت المصادر الأمثلة على هذه الثروات الضخمة في ذلك الوقت . « ففي ايام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام فقد بنى دارة بالبصرة . . . تنزلها التجار وأرباب الاموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتنى ايضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية . . . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد والف امة

١ - طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان بن عفان) مجلد ٤ ص ٢٧٦ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨٠ .

٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٩٨ .

وخططاً بالكوفة المشهورة من هذا الوقت المعروفة بالكناس بدار الطلحتين وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وقيل اكثر من ذلك وبناحية سراة اكثر مما ذكرنا ، وشيد دارة بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج . وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى دارة ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة الآف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفا . وابتنى سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق فرفع شملها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات . وقد ذكر سعيد بن المسيب إن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد دارة بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على اميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات وجعلها مجصصه الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة الف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار»[1] ويعلق المسعودي بعد ذلك بقوله : « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه ولم يكن مثل ذلك في عصر بن الخطاب » .

وقد ترتب على ذلك ما حذر منه عمر ، « فانه قد اجتمع إلى هذه الطبقة الأرستقراطية أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام ، والتصقوا بهم وتقربوا إليهم ، حتى اذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس اليهم ، فنبه بذلك ذكرهم ، والاَّ فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة ، وأهل الكوفة يريدون الزبير ، واهل مصر يريدون عليا ؟ . . صحيح إن عليا لم يجيء مصر ، ولكن جاءها من هو امس الناس به رحماً وهو محمد بن ابي بكر لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها علي بعد موت أبي بكر »[2] .

والى جانب هذه الطبقة الثرية من أعلام قريش وجدت طبقة أخرى فقيرة لم تملك ارضاً ولا مالاً وليس لها عطاءات ضخمة ، تلك هي طبقة الجنود المقاتلين

---

١ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤ .
٢ ـ الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٢٧ .

« وقد تكونت هذه الطبقة باستئثار عمال عثمان بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمان المقاتلة منها ، مدعين أن الفيء لله ، وليس للمحارب الا اجر قليل يدفع اليه »[١] . وذلك يخالف ما كان الجنود المقاتلون يحصلون عليه من الفيء والخراج في العهود السابقة ففي كتاب عمر بن الخطاب الى مسعد بن أبي وقاص حين افتتح العراق : أمّا بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليه به الى العسكر من كراع ومال فأقسمه بين من حضر من المسلمين وأترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء »[٢] .

« فقد رأى عمر بن الخطاب في شأن قسمة الارضين التي افاء الله على المسلمين من ارض العراق والشام ان يحبس الارضين بعلوجها وان يضع عليهم في الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم »[٣] .

وهكذا فقد تكونت هذه الطبقة وحقدت على قريش واعتبرتها مغتصبة لحقوقها وتمنت الخلاص من سيادتها وحكوْمتها . وتمضي الأيام ، والأحداث تزايد الهوة اتساعاً بين هاتين الطبقتين . فبينما تزداد الطبقة الارستقراطية الثرية ثراء وتسلطا وتمعن في اللهو والبطالة تزداد الطبقة الأخرى فقراً واحساساً بهذ الفقر « فاول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان فقصها وكسر الجلاهقات وحدث في الناس النشْو فأرسل عثمان طائفا يطوف عليهم بالعصا فمنعهم من ذلك ، ثم اشتد ذلك فأفشى الحدود »[٤] .

---

١ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٥٨ .
٢ ـ ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٢٤ .
٣ ـ المصدر السابق ص ٢٥ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٩٨ .

*ـ الجلاهقات : قوس البندق الذي يرمى به .
النشو = أول السكر .

وهكذا ظهرت الفوارق الطبقية في المجتمع الاسلامي التي كانت الدعوة الى المساواة أهم الاسس التي دعا إليها الاسلام ؛ وظهرت العصبية بتعصب العرب كافة على قريش حسداً لهم وحقداً عليهم لولاية الأمر واستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة أو التابعين مع استئثارهم بالفيء . وقد ظهر السخط على استئثار قريش بالسلطة في الحادثة التي جرت في مجلس سعيد بن العاص والي الكوفة ؛ تلك الحادثة التي جرت في مجلس سعيد بن العاص حين كان « يسمر عنده وجوه اهل الكوفة منهم مالك بن كعب الأوجي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس الخفيان ومالك الأشتر . . . وغيرهم فقال سعيد : انما هذا السواد بستان قريش فقال الأشتر : اتزعم أن السواد الذي افاءه الله علينا بأسيافنا بستانٌ لك . ولقومك ؟ وتكلم القوم معه . . . واغلظ لهم القول عبد الرحمن الاسدي وكان على شرطة سعيد . . . . » وتفاقم الأمر حتى قال سعيد : « والله لا يسمر عندي أحد ابداً فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيدا واجتمع اليهم الناس حتى كثروا فكتب سعيد واشراف أهل الكوفة الى عثمان في اخراجهم . فكتب اليهم ان يلحقوهم بمعاوية »(١)

وإذ بمعاوية يناظرهم في فضل قريش ، وتقدمها على سائر المسلمين ، فيقول : « انكم قوم من العرب ، ذو أسنان والسنة ، وقد ادركتم بالإسلام شرفاً غلبتم الأمم وحويتهم مواريثهم وقد بلغني انكم نقمتم قريشاً ونقمتم على الولاة فيها ، ولولا قريش لكنتم أذلة »(٢)

فأنكر صعصعة بن صوحان على معاوية تفضيله قريشاً على سائر القبائل بقوله : « أمّا قريش فإنها لم تكن اكثر العرب ولا امنعها في الجاهلية وان غيرها من العرب لأكثر منها كان وامنع » ثم يعود معاوية إلى تذكير القوم بأحساب قريش

---

١ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ . ص ٧٠ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٣ . ص ٧٠ .

وانسابها « ولا اظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلاّ بالله تعالى ، لم تكن باكثر العرب ولا اشدهم ، ولكنهم كانوا اكرمهم احساباً وامحضهم انساباً »[1] . فلما انكروا عليه ذلك نفاهم الى الجزيرة وكان عليها من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد المخزومي ، فأذلهم وأظهر لهم سيادة قريش بامتهانه لهم وتحقيره لشأنهم وحطه من مقامهم : « لما رجع معاوية المسيَّرين قالوا : ان العراق والشام ليسا لنا بدار ، فعليكم بالجزيرة فاتوها اختياراً فغدا عليهم عبد الرحمن بن خالد فسامهم الشدة فضرعوا له وتابعوه »[2] .

« وهكذا وقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل منذ ذلك الحين ، وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الأنصار ، وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في الاسلام »[3] .

كذلك فأن العودة إلى التفاخر بالأنساب قد عادت للظهور على الساحة من جديد فنرى الخليفة عثمان يبرزها في مجال الأحساب والأنساب كما كانت في الجاهلية عندما يخاطب عمر وبن العاص لما عزله عن ولاية مصر فيقول له : « وانا والله لو اخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولكني لنت عليك فاجترأت علي ، اما والله لأنا اعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان . فقال عمرو : دع عنك هذا ، فالحمد لله الذي اكرمنا بمحمد (ﷺ) وهدانا به فقد رأيت العاصي بن وائل ورأيت اباك عفان فوالله للعاص كان اشرف من ابيك قال فانكسر عثمان وقال : مالنا ولذكر الجاهلية »[4] .

ولم تكن العصبية لقريش هي وحدها التي ظهرت في المجتمع الاسلامي زمن عثمان ، فالمسلمون ادركوا بعد وقت قصير ، انهم حين بايعوا عثمان قد سلموا

---

١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٧٠ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٣٠ .
٣ ـ زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي مجلد ٢ ص ٣٣٨ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٥٦ .

السلطان الفعلي على المسلمين إلى اله وذوي قرابته من بني امية وآل ابي معيط . فعمر وابو بكر كانا قرشيين كعثمان ، ولكن عثمان كان اموياً وفي امية دون غيرها من البطون كانت عصبية قريش . وابن خلدون يشدد على هذه الناحية فيقول : « ان عصبية مضر كانت في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف انما كانت في بني أمية ، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس »[1] فقد اتضح أن الأمويين كانوا المحرك الأساسي لأمور الخلافة في عهد عثمان ولئن حالت شخصية عمر القوية وسياسته الحازمة دون ظهور اثار العصبية في عصره فان شخصية عثمان المستضعفة واخطاءه السياسية قد فسحتا المجال لظهور هذه العصبية واشتداد امرها في اواخر عهده . فخلافة عثمان بن عفان وهو من الامويين قد اتخذت لونا من العصبية القائمة بين الهاشميين والامويين . فقد اتخذ الامويون من حلم عثمان وقرابته وسيلة لتحقيق مآربهم ، واخذوا يحيون نفوذهم القديم هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن عليا كان ينتظر ان تكون له الخلافة قبل عثمان[2] فانتماء عثمان الى البيت الأموي ، جعل بني هاشم يقفون له بالمرصاد يتتبعون خطواته ويعدون عليه انفاسه لما بين البيتين من عداء قديم يرجع الى ايام الجاهلية حين كان بنو هاشم في منزلة أدنى من منزلة آل امية وفي وضع مادي واجتماعي لا يداني وضع ابناء عمومتهم الامويين[3] . ولكن نزول الاسلام على رجل من بين هاشم جعلهم يشعرون بالزهو والفخر بنعمة الله . وعندما جاء عثمان ليعيد التسلط الأموي القديم ويسلم اهله وجماعته مقاليد الأمور من جديد ، ثارت ثائرة بني هاشم ، وعادت العصبية لتظهر من جديد بين الأسرتين . وهذه العصبية من نوع آخر فهي لم تكن لقبيلة من القبائل ولكنها كانت عصبية للأسرة ، ذلك أن بني هاشم وبني أمية كلاهما من قريش .

لقد « كان عثمان في رأي الهاشميين ظاهرة أموية تسترد مجدهم القديم وتنافس فيه آل الرسول الأدنين . فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن

---

١ ـ ابن خلدون : المقدمة ص ٣٨٢ .

٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل و الملوك ج ٤ . ص ٢١٨ .
(كان علياً « لا يشك ان الأمر يصير إليه ») .

٣ ـ المصدر السابق : ج ٢ . ص ٢٥٣ .

رياسة عثمان كانت رياسة بيته »[1] « فان عثمان لما ولي كره ولايته نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) لان عثمان كان يحب قومه ، فولي الناس اثنتي عشرة سنة وكان كثيراً ما يولي بني امية ممن لم يكن له من رسول الله صحبة »[2] .

فعثمان لم يعمل بنصيحة عمر بن الخطاب حين طعن « انشدك الله يا عثمان ان وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بني ابي معيط على رقاب الناس »[3] ويكفي ان نقارن بين الأنساب القبلية لولاة الأقاليم على عهد عمر وأنسابهم على عهد عثمان لنرى مدى ما بلغته قريش عامة وأمية خاصة في الإنفراد بالسلطات والسلطان في عهد الخليفة الراشدي الثالث .

ففي عهد عمر « كان على مكة نافع بن الحارث الخزاعي (وهو ليس من قريش) وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي ، وعلى صنعاء يعلى بن منية حليف بني نوفل ابن عبد مناف ، وعلى الجند عبد الله بن ابي ربيعة (وهو قريشي من مخزوم) وعلى الكوفة المغيرة من شعبه (وهو ثقفي) وعلى البصرة ابو موسى الاشعري (وهو يمني) وعلى مصر عمرو بن العاص (وهو قرشي من بني سهم) وعلى حمص عمر بن سعد (وهو انصاري) وعلى دمشق معاوية بن ابي سفيان (وهو قرشي من بني امية ، وعلى البحرين ومن والاها عثمان بن ابي العاص الثقفي »[4] .

فغالبية هؤلاء العمال ليسوا من قريش وان كان فيهم بعض من ثقيف وهم شركاء قريش في الجاهلية ولكن ليس فيهم واحد من عدي رهط عمر .

وقد كان اختيار عمر لعماله من العرب الذين حسن أسلامهم وثبتت له كفايتهم ، وكان يراقبهم . فقد كان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم

---

١ ـ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٩ .
٢ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٧ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٩٢ .
٤ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٤١ .

فيقول : « اني لم استعملكم على امة محمد (ﷺ) على اشعارهم . ولا على ابشارهم ، انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل . . . . وكان يقتص من عماله ، واذا شكي اليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه امر يجب اخذه به ، اخذه به »[1] وهكذا فان سياسة عمر الشديدة في مراقبة عماله لم تفسح لهم المجال ان يستبدوا او يكونوا لانفسهم عصبيات في الولايات التي حكموها .

أما في عهد عثمان فقد تغير الحال ولم ينقض وقت طويل على توليه الخلافة حتى حدثت تغيرات لصالح قريش والأمويين بالذات بالرغم من ان عمر « كان قد أوصى أن تظل الولايات دون تغيير في اشخاص ولاتها عاماً من خلافة الخليفة الجديد »[2] فمعاوية بن ابي سفيان وهو من بني امية بعد ان كان في عهد عمر واليا على « دمشق والأردن . . . ضمت اليه حمص وقنسرين وفلسطين . . . فاجتمع الشأم على معاوية لسنتين من امارة عثمان »[3] .

كذلك « فقد عزل عثمان سعد بن ابي قاص عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة ابن ابي معيط ، وهو صحابي اخو عثمان لامه ـ وذلك اول ما نقم عليه لانه آثر اقاربه بالولايات »[4] وهكذا خضعت ولاية الكوفة للأمويين ايضاً ، وانتقلت هذه الولاية بعد « عزل الوليد الى سعيد بن العاص بن امية وكان سعيد قد ربي في حجر عثمان . حتى قال بعض شعراء الكوفة .

فررت من الوليد الى سعيد ... كأهل الحجر اذ جزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام ... امير محدث او مستشار »
لنا نار نخوفها فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار[5]

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٠٤
٢ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤١ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨٩
٤ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
٥ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٣ .

وفي هذه الابيات تعبير صادق عما في نفوس اهل الكوفة من استياء وحقد على قريش لتسلطها واستبدادها بالأمر .

والمصادر تذكر ان السبب المباشر لعزل الوليد بن عقبة هو شرب الخمر[١] ولكنّ بعزوه اسبابا اخرى « وهي تتصل بسياسة عثمان العامة لأهل الكوفة وسيرته فيهم فقد كان معظم اهل الكوفة من اليمانية ولم تكن المضرية فيهم إلاّ قلّة ، وكان الوليد رجلاً قرشيا معتداً بقرشيته وبمكانه من عثمان ، فما استبعد ان هذه الكثرة اليمانية قد ضاقت بهذا الامير القرشي المضري فتنكروا له »[٢] .

على أن عملية عزل الوليد لم تغير شيئاً من الاتجاه السائد لأنه استبدل برجل من بني امية .

وفي ولاية مصر « عزل عثمان عمرو بن العاص عن خراجها واستعمل عبد الله بن سعد بن ابي سرح »[٣] « وكان اخا لعثمان من الرضاعة »[٤] .

كذلك « ففي سنة تسع وعشرين للهجرة عزل عثمان ابا موسى الاشعري عن البصرة واستعمل عبد الله بن عامر بن كريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهو ابن خال عثمان »[٥] .

وهكذا فالولايات الكبرى في الدولة الإسلامية عهد عثمان كان يسيطر عليها امويون او قرشيون ، ففي الشام كان معاوية بن ابي سفيان الاموي وفي الكوفة كان الوليد بن عقبة وبعده سعيد بن العاص من امية . وفي مصر عمرو بن العاص وبعده عبد الله بن سعد بن ابي سرح وقد اقر عثمان ابا موسى الاشعري ثلاث سنين على

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٤١ ـ ٢٥٢ .

٢ ـ طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان بن عفان) مجلد ٤ ص ٢٩٣ .

٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥٣ « وهو رجل كان رسول الله اباح دمه ونزل القرآن بكفره : القرآن الكريم : سورة الانعام آية ٩٣ « ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او قال اوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله » .

٤ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥ .

٥ ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٤٩ .

البصرة وهكذا « لم يبق الاّ مصر واحد من الامصار الكبرى لم يل امره أموي ولا قرشي وانما وليه رجل من اهل اليمن ، فكان مركز ابي موسى غريبا شاذاً ، فهو اليمني الوحيد الذي يلي مصراً كبيراً . وقد تنبهت لذلك قريش وقرابة عثمان »(١) .

وفي هذا الصدد يقول « غيلان بن خرشه لعثمان بن عفان : اما منكم خسيس فترفعوه اما منكم فقير فتجيروه ! يا معشر قريش ، حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد ! فانتبه لها الشيخ فولاها عبد الله بن عامر »(٢) .

وهكذا فان عثمان اسند الى آله وذويه الولايات الكبرى في الدولة الاسلامية وهي الشام ومصر والكوفة والبصرة ، وكانت هذه الولايات الاربع مصدر ثراء المسلمين ومصدر قوته المالية . فمع ان هؤلاء الولاة جميعاً من قرابة عثمان ولم يكن سلوكهم الديني او الاداري في أمصارهم ومع رعيتهم مرضياً ومقبولاً فقد كانوا جميعاً من قريش واكثرهم من بني امية ، وكانوا في تصرفاتهم لا يخفون ميلهم لقبيلتهم وتعصبهم لقريش على غيرها من قبائل العرب . ولم يكن عثمان يعاملهم بالشدة التي اتصف بها عمر ، لذلك فقد ظهر تعصب الولاةوجورهم ؛ففي مصر قسا عبد الله بن سعد في جباية الخراج فظلم ، ثم اظهر من العصبية لقريش مما اثار غير قريش من العرب والمسلمين ودفعهم إلى أن يشكوه إلى عثمان ، وذكروا له ما صنع بمصر وتحامله على المسلمين واهل الذمة واستئثاره في غنائم المسلمين(٣) .

فسياسة عثمان بن عفان في الأمور السياسية والإدارية والمالية اثارت عليه وعلى عهده موجة من السخط بين المسلمين عامة وبين بقية اعضاء مجلس الشورى الخمسة خاصة . على أن اعضاء مجلس الشورى وهم :

علي بن ابي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص الذين وجدوا أن ارتفاع شأن بني امية يهدد مكانتهم

---

١ ـ طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان بن عفان) مجلد ٤ ص ٢٨٥ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٦٦ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٧٤ .

ونفوذهم . ولم يكن الطموح السياسي وحده السبب في معارضة هؤلاء الصحابة لتصرفات عثمان بل كانوا حريصين على العمل باحكام الدين ، والتمسك بالخير والحق كذلك فسائر المسلمين استاؤا من تصرفات عثمان وعماله وولاته ونقموا عليهم لما رأوه من عصبية أموية وقرشية على أيديهم . كذلك فان عثمان « اتخذ ابن عمه مروان بن الحكم كاتباً له في المدينة وترك له الأمر فملأ مروان كل مناصب الولاية باهل قرابته »[1] وبذلك أصبحت المراكز الادارية في الدولة تحت سيطرة بني امية .

والى جانب هذه الاسباب التي ادت الى قيام حركة استياء في صفوف المسلمين ضد الحكم المتمثل في عثمان واسرته فالمصادر تذكر العديد من الامور التي أخذها الناس على عثمان فمنها «انه آوى طريد رسول الله الحكم بن العاص ولم يؤوه ابو بكر ولا عمر ، واعطاه مائة درهم ، ؛ وسير عامر بن عبد القيس من البصرة الى الشام ، وطلب منه عبيد الله بن خالد بن اسيد صلة فاعطاه اربعمائة الف درهم . وتصدق رسول الله (ﷺ) بمهزور - موضع سوق المدينة - على المسلمين فاقطعها الحارث بن الحكم اخا مروان - واقطع فدك مروان وهي صدقة لرسول الله (ﷺ) وافتتح افريقية واخذ خمسة فوهبه لمروان »[2] ففي مجمل هذه الامور نرى ان ايثار عثمان اهله بالمال وتفضيله لهم كان الدافع الاساسي والاهم لنقمة الناس عليه . .

والى جانب هذه الاسباب فالطبري يذكر اموراً اخرى عابها الناس على عثمان وحاوروه في امرها ، حيث حاول تبرير قيامه بها فمن هذه الامور انه اتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم ، وانه حمى الحمى ، وإن القرآن كان كتبا فتركها الا واحدا وانه استعمل الاحداث في ولاته امور المسلمين وهم لا يصلحون لها ولا يقدرون عليها وانه اعطى ابن ابي سرح ما افاء الله عليه ، وانه احب اهل بيته واعطاهم اموالاً كثيرة ، وانه اعطى الارض رجالاً وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار ايام افتتحت[3] .

---

١ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤٠ .

٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٣ .

٣ - لطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ .

وقد ظهر التبرم اول ما ظهر من سياسة عثمان في المدينة فحاول كبار الصحابة في بادىء الامر ان يبعدوا بينه وبين حاشيته وخاطبوه في الامر . فعلي خاطب عثمان في امر استعمال اقاربه وفساد هؤلاء الاقارب وتصرفهم بالامر دونه وضرب مثلاً على ذلك معاوية فاجابه عثمان « هل تعلم ان عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته . فقال علي : انشدك الله هل تعلم ان معاوية كان اخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال : نعم . قال علي : فان معاوية يقتطع الامور دونك وانت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية »[1] .

ويبدو ان عثمان كان يعرف خشية الناس لعمر وبأسه حتى انه قال مرة يخاطب الناس الذين عابوا افعاله وذكروه بابن الخطاب وطريقته في سياسة الدولة « الا فقد والله عبتم علي بما اقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما احببتم او كرهتم ، ولنت لكم ، واوطأت لكم كتفي ، وكففت يدي ولساني عنكم فأجترأتم علي »[2] .

وعاتبه عبد الرحمن بن عوف وقال له : « انما قدمتك على ان تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر فخالفتهما ، وحابيت اهل بيتك ،واوطأتهم رقاب المسلمين . فقال عثمان : ان عمر كان يقطع قرابته في الله وانا اصل قرابتي في الله . قال عبد الرحمن : لله عليَّ ان لا أكلمك ابداً ، فلم يكلمه ابداً حتى مات . ودخل عليه عثمان عائداً له في مرضه فتحول عنه الى الحائط ولم يكلمه »[3] .

وعارض سياسة عثمان في المال والادارة عبد الله بن مسعود « فضربه حتى كسر اضلاعه »[4] . وعارضه ابو ذر الغفاري فنفاه الى الشام فلم يكف عن المعارضة بل امدته اساليب معاوية في حكم الناس عادة جديدة فاخذ ينتقد اساليب معاوية في انفاق الاموال العامة « قام ابو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الاغنياء ، واسوا

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٣٨ .
٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٣٨ .
٣ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٠ .
٤ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٩٩ .

الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واوجبوه على الاغنياء ، وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس »[١] وينتهي به الامر الى الربذة .

وقد تذمر ذوو هؤلاء الصحابة لما يتعرض له ذووهم . فقد ذكر السيوطي « انه كان من عثمان هنأة الى عبد الله بن مسعود وابي ذر وعمار بن ياسر ، فكانت بنو هذيل وبنو زهرة في قلوبهم ما فيها ، كانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان لحال عمار بن ياسر »[٢] .

والى جانب الصحابة نقم الانصار على سياسة عثمان ، لانهم حُرموا من الولايات بعد ان وعدوا بان يكونوا شركاء في الحكم ولم ينس الانصار ما كان لهم من الفضل في وصول قريش الى السلطة ، فإذا بهم يستبعدون ويحرمون من المكاسب التي استأثرت بها قريش عامة والامويون خاصة .

ولم تظهر النقمة على عثمان في المدينة فحسب بل ظهرت ايضا في الامصار اي في المدن التي يسكنها العرب والذين قد هاجروا اليها واستقروا فيها كالبصرة والكوفة ومصر[٣] . وكان لهذه الهجرات والاستيطان من قبائل العرب في الامصار المحدثة والاقطار المفتوحة اثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية والمجتمع القبلي خاصة . ومن ابرز هذه الاثار انتقال مراكز الاحتكاك القبلي من ربوع الجزيرة الى المواطن الجديدة ولا سيما العراق والشام وخراسان . وكان للاسلوب القبلي في تخطيط الامصار اكبر الاثر في احتدام العصبيات ونشوب الفتن القبلية فيها ، اذ ان جمع طائفة من القبائل تأصلت في نفوسها روح العداء القبلي منذ اقدم العصور في بلد واحد كان امراً غاية في الخطورة فقد حملت هذه القبائل معها الى مواطنها الجديدة

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨٣ .

٢ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ وابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٧ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٥ « وكان اهل مصر كاتبوا اتباعهم من اهل الكوفة واهل البصرة وجميع من اجابهم ان يثوروا خلاف امرائهم » .

خصوماتها القبلية القديمة وعداواتها المتوارثة وذكريات الايام والوقائع . فالقبائل التي نزلت الكوفة كانت خليطا من اليمنية والنزارية . « فانزل في ودعة الصحن سليماً وثقيفا مما يلي الصحن على طريقين ، وهمدان على طريق ، وبجيلة على طريق آخر ، وتيم اللات على آخرهم وتغلب ، وانزل في قبلة الصحن بني اسد على طريق ، وبين بني اسد والنخع طريق ، وبين النخع وكندة طريق ، وبين كندة والازد طريق ، وانزل في شرقي الصحن الانصار ، وزينة على طريق ، وتميماً ومحارباً على طريق ، واسداً وعامراً على طريق - وانزل في غربي الصحن بجالة وبجلة على طريق ، وجديلة واخلاطاً على طريق ، وجهينه واخلاطاً على طريق »[1] ، وهكذا فقد اشتملت الكوفة على عدد كبير من القبائل ذات العصبيات المتعددة . « ففي الكوفة كان اليمنيون اثني عشر الفاً وكانت نزار ثمانية آلاف وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد »[2] وقد تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التي سكنها العرب . وهكذا نشأ ظرف طارىء جديد لم يسبق له وجود زمن الخلفاء السابقين وهو نشوء عصبية اقليمية .

والى ذلك يشير ابن خلدون بقوله : « وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين ، جند دمشق ، جند العواصم ، وانتقل ذلك الى الاندلس ، ولم يكن لاطراح العرب أمر النسب ، وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند امرائهم »[3] ونتيجة لهذه العصبية الجديدة اخذ رجال القبائل الذين نزحوا عن الجزيرة واستقروا في المدن الجديدة او الحواضر المفتوحة يشعرون بنوع من الاقليمية تشدهم الى مواطنهم الجديدة ، وبدأوا ينظرون بزهو وفخر اليها ويوطدون روابط مصالحهم بمصالح هذه المواطن . وهذا النوع الجديد من العصبية التي تمتزج فيه القبلية بالاقليمية ينطبق على القبائل التي اقامت في الكوفة كما ينطبق على القبائل التي

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥ .
٢ - البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٦ .
٣ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

اقامت في الشام .

وقد صادف انه في هذه الفترة التي كانت تنمو فيها هذه الاقليمية وتتمكن في نفوس افراد القبائل ، توقفت موجة الفتوح فزاد هذا الحال في التباعد بين المدينة وبين الأقاليم . ويلخص فلها وزن الحالة الجديدة التي نشأت في الأمصار زمن عثمان بقوله: «الظروف بعد ان توقفت حروب الفتوحات الكبرى قد تغيرت. . فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجري كله مع بقية انواع دخل الدولة الى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطي المحاربين العرب من ذلك سوى اعطيات فرضتها لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة من نصيب الجيش واستطاعت بفضل الفتوحات التي تمت على يده ان تستقل وتتخلص من سلطانه . . . فنزل الجيش الى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق اعطيات كانت الدولة تستطيع ان تمنعها ايضاً . . . فلا عجب ان يعتقد المقاتلة ان الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وحرمتهم من اموالهم واخذتها لنفسها وانها تستند الى الخزانة فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعموا ان المال الذي يجتمع من الخراج انما هو لهم وليس للدولة . وقالوا انه مال المسلمين وليس مال الله ، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفيء يجب أن تقسم . وفي بعض الأحيان نهبوا بيوت المال في الأمصار »[1] وهكذا فان قريشاً وعلى رأسها الخليفة الراشدي الثالث لم تستطع ان تواجه هذه التحركات القبلية نظراً للخلافات والمطامع السياسية التي كانت تحرك مختلف الفئات القرشية وتقضي عليها .

كذلك قد دخل في المجتمع الاسلامي عنصر جديد كان له دور كبير في الثورة على عثمان وهم الأعراب . فقد اضطر عثمان الى تجنيد عدد كبير منهم وقد كان اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخُمْس »[2] وفيهم قال الله تعالى « الاعراب اشد كفراً

---

١ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤١ ـ ٤٢ .

٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٧٠ .

ونفاقاً واجدر الاّ يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم »[1] فهؤلاء الأعراب لم يدخل الإيمان قلوبهم ، وقد ذهبوا الى القتال ومعظمهم يبغي عرض الحياة الدنيا فشكلوا طبقة خاصة يمكن ان تسمى الرعاع وقد سهل على المستغلين توجيههم في طريق الفتنة - فسعيد بن العاص يصف اهل الكوفة زمن عثمان فيقول : « ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم ، وغُلب اهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت واعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاد من نازلتها ولا نابتتها »[2] .

وهكذا فقد اجتمع على بغض عثمان والكيد له اهل الامصار ووجوه اهل المدينة وكبار الصحابة من مهاجرين وانصار ، هذا فضلاً عن رجال الجيش وخاصة الاعراب . فهؤلاء جميعاً شكلوا اتجاهاً حزبياً معارضاً للسلطة المتمثلة في عثمان وعماله وآله من بني امية . فقد جمعهم الهدف الواحد المتمثل في معارضة سيطرة بني امية على شؤون الخلافة .

والملاحظ ان الثورة على عثمان قد انطلقت من الأمصار بالرغم من « ان عليا وطلحة والزبير كانوا على رأس الناقمين على عثمان ، ولكنهم لم يشاؤا ان يستعينوا بأهل المدينة ويحاربوه هم انفسهم حربا سافرة تحت سمعه وبصره ، بل هم آثروا ان تكون الثورة في الأمصار حيث تتركز القوة الحربية والمالية للدولة . أما المدينة فلم يكن تركز فيها سوى السلطة الأدبية للاسلام »[3] .

ومن الاسباب التي ساعدت على قيام الفتنة هو نشاط الفئات السرية المعادية للخليفة الراشدي الثالث . فقد وجد بنو هاشم داعية جريئاً في شخص عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء والذي تزعم المصادر « انه كان يهوديا من اهل صنعاء ، امه

---

١ - القرآن الكريم : سورة التوبة اية ٩٧ كذلك ففي سورة الحجرات اية ١٤ يقول الله تعالى : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم » .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل الملوك ج ٤ ص ٢٧٩ .

٣ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤٢ .

سوداء ، فاسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند احد من اهل الشام ، فاخرجوه حتى اتى مصر فاعتمر فيهم »[1] وقد كان عبد الله بن سبأ « اول من شهر القول بفرض امامة علي عليه السلام واظهر البراءة من اعدائه وكاشف مخالفيه »[2] .

فقد قام ابن سبأ واخذ يدعو الناس في مصر ، حول احقية علي بالخلافة ويؤلبهم على عثمان فيقول : « ان عثمان اخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله (ﷺ) ، فانهضوا في هذا الامر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على امرائكم ، واظهروا الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الامر . فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الامصار وكاتبوه ، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك »[3] واخذت دعوة ابن سبأ بالأنتشار سراً في الامصار .

وهكذا فقد تضافرت العوامل العديدة في تأجيج الثورة على الخليفة الراشدي الثالث وكانت العوامل الأساسية فيها تتصل بثلاث طبقات : طبقة ارستقراطية دينية كونتها السقيفة بما بعثت من مركز قريش غدت بالإضافة الى ارستقراطيتها الدينية تتمتع بثروات طائلة بسبب سياسة عثمان في المال والارض والهجرة ادت بالتالي الى ظهور فكرة العصبية من جديد للامويين خاصة ولقريش عامة ، وقد تسلطت هذه الطبقة علي سائر المسلمين ، كذلك فان كثيراً من افراد هذه الطبقة طمحوا للوصول الى الحكم مما دفعهم الى استغلال كل الظروف المواتية للوصول الى هذا الهدف .

ثم طبقة المحاربين والمسلمين الجدد المحرومة من كافة الامتيازات والتي كانت

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٠ .
٢ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤١ .

اسباب تذمرها متوافرة . فقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة ، اما دوافعها فهي تصرفات عثمان وولاته وآل بيته ، واما الذي غذاها ، فهم اصحاب المصلحة فيها ، من الزعماء الذين اوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم ، ومن المال والمنزلة الدينية ما مكنهم من جمع الأنصار حولهم ، ومن سوء الأوضاع الاجتماعية ما سهل عليهم تنفيذ ما رغبوا فيه . وهؤلاء هم الذين شكلوا الطبقة الثالثة للثورة .

وقد نتج عن هذه الظروف والاحداث السيئة حركة عامة ، سلك عثمان وآله من الأمويين والمنتفعين تجاهها سلوكا بعيداً عن الحكمة والعدل . فبدلاً من ان تجاب مطالب الثوار ردوا بعنف واستهين بهم وجوبهوا بسياسة قاسية هي السياسة التي اسفر عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الأمصار . فقد « جمع عثمان امراء الاجناد : معاوية بن ابي سفيان ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وعمرو بن العاص فقال : اشيروا علي ، فان الناس قد تنمروا لي فقال له معاوية : اشير عليك ان تأمر امراء اخبارك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله ، واكفيك انا اهل الشام ، فقال له عبد الله بن عامر : ارى لك ان تجمرهم في هذه البعوث حتى يهم كل رجل منهم دبر دابته وتشغلهم عن الارجاف بك ، فقال عبد الله بن سعد : اشير عليك ان تنظر ما اسخطهم فترصيهم ، ثم تخرج لهم هذا المال فيقسم بينهم »[1] وانتهى المؤتمر بأن « رد عثمان عماله الى اعمالهم وامرهم بالتضييق على من قبلهم ، وامرهم بتجمير الناس في البعوث ، وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه »[2] .

ولكن هذه الاجراءات زادت نار المقاومة ، فقد رأى هؤلاء الثوار انهم خدعوا فلما كان في شوال سنة خمس وثلاثين خرج اهل مصر . . . وخرج اهل الكوفة . . . وخرج اهل البصرة[3] وذلك لارغام عثمان على تغيير بطانته وتبديل عماله الذين

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٣٤ وابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣٥ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٣٥ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٤٩ وابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٤٠ .

التصرف ولتغيير سياسته المالية نحوهم « نريد الا يأخذ اهل المدينة عطاء ، فانما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من اصحاب رسول الله (ﷺ) »[1] .

ولكن الامر يسوء حين يعثر الثوار على صحيفة مرسلة مع غلام عثمان « يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس ، وعمرو بن الحمق ، وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم »[2] وهؤلاء كانوا زعماء الثوار المصريين وتؤكد المراجع انه لم يكن للخليفة عثمان علم بهذه الصحيفة وانما كانت من عمل مروان بن الحكم[3] وكان من نتائج هذا الامر ان حوصر عثمان اربعين يوماً ثم قتل[4] .

وقد كان مقتل عثمان بن عفان من اخطر الاحداث في التاريخ الاسلامي فقد حصل الخلاف الذي به انصدعت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم واصبحوا فرقاً واحزاباً ، حاول كل فريق ان يفرض سلطانه السياسي بقوة السيف ، وهكذا سار المسلمون في اتجاهين حزبيين أساسيين : احدهما مناصر للخليفة المقتول والآخر معاد له .

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٥٥ .
٢ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٨٥ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٨٥ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٧١ ـ ٣٧٥ .

الفَصْل الثاني

معركة صفين ونشأة الاحزاب السياسية

قام الخلاف بين المسلمين منذ مقتل الخليفة الراشدي الثالث او فتنة عثمان ، اذ ان اضافة هذه الفتنة إلى عثمان باعتبار مقتله نقطة البدء في اختلاف المسلمين فمنذ ذلك الحين انصدعت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم واصبحوا فرقاً واحزابا يكفر بعضهم بعضاً وتحول الصراع على السلطة الى صراع دموي حار ، وانقسم المسلمون إلى حزبين يعمل كل منهما سلاحه في الآخر . ذلك ان المسلمين اختلفوا في مقتله « فأما أهل السنة والاستقامة فانهم قالوا : كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً . وقال قائلون بخلاف ذلك »[1] وهكذا افترق المسلمون بين مطالب بدمه وبين ثائر عليه . وقد كان الوضع السياسي آنذاك شديد الخطورة . فقد خشي المسلمون ان يعود الثائرون إلى أمصارهم بعد مقتل الخليفة عثمان دون أن يكونوا قد اختاروا خليفة له ، فهم لا يأمنون اختلاف الناس وفساد الامة[2] .

لذلك فقد جاء الناس الى علي يطلبون منه أن يلي الحكم ، وذلك ان عليا كان في ذلك الحين من اكثر الاشخاص المؤهلين لتولي امور الخلافة والناس يعرفون حقه في الأمر فيقولون له : « ولا نجد اليوم احداً احق بهذا الأمر منك ولا أقدم سابقة ولا

---

١ ـ الاشعري . مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٤٩ .
٢ ـ الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٣ .

أقرب من رسول الله ﷺ »[١] .

ولكن عليا يمتنع عن الاستجابة الفورية لطلب الصحابة والمسلمين نظراً لدقة المرقف وصعوبة الأوضاع ، لذلك فهو يقول لهم : « دعوني والتمسوا غيري ، فانا مستقبلون امراً له وجوه والوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول »[٢] ولكنه بعد الحاح المسلمين عليه رضخ للأمر . على ان المصادر تختلف في مدى الاجماع على بيعة علي بن ابي طالب فمنهم من يذكرانه « لما قتل عثمان ، بايع الناس عليا ، فسموا بالجماعة »[٣] .

اما الاشعري فهو يرى انه « لما بويع علي بن ابي طالب رضوان الله عليه ، اختلف الناس في امره ، فمن منكر لإمامته ، ومن بين قاعد عنه ، ومن بين قائل بإمامته منعقد لخلافته »[٤] .

ولكن المرجح ان فريقاً من المسلمين خاصة نفر من بني امية وكانوا شديدي الصلة بالخليفة عثمان لم يبايعوا عليا بل آثروا الخروج من المدينة « لما كان يوم الخميس على رأس خمسة ايام من مقتل عثمان رضي الله عنه جمعوا اهل المدينة . . . ووجدوا بني امية قد هربوا الاّ من لم يطق الهرب ، وهرب الوليد وسعيد الى مكة في اول من خرج وتبعهم مروان وتتابع على ذلك من تتابع »[٥] .

كذلك فهناك نفر يسير من الأنصار لم يبايع عليا كما ذكر الطبري « بالرغم من كونهم عثمانية اضافة الى قوم هربوا من المدينة الى الشام ولم يبايعوا عليا »[٦] .

كذلك « فأهل مصر افترقوا فرقاً ، فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه ،

---

١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٢٧

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٣٤ .

٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٤ والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ « بويع علي بالخلافة الغد من قتل عثمان بالمدينة ، فبايعه جميع من كان بها من الصحابة رضي الله عنهم » .

٤ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٥٤ .

٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٣ .

٦ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٣٠ .

وفرقة وقفت واعتزلت وفرقة قالوا : نحن مع علي ما لم يُعَدْ اخواننا ، وهم في ذلك مع الجماعة »[1] .

وهكذا فمنذ بداية عهد الخليفة الرابع ، وجدت فئات معارضة لخلافته ، وكان عليه ان يواجه ظروفاً سياسية واجتماعية شديدة التعقيد ، نظراً لما أصاب المجتمع الاسلامي من اختلاف في الأهواء والميول وتشابك في المصالح بين مختلف فئاته .

وقد ظهرت المعارضة في صفوف قسم من المسلمين لسياسة علي بن ابي طالب في الادارة ذلك انه اصر على عزل ولاة عثمان على الأمصار ، هؤلاء الولاة الذي كانت تصرفاتهم وعصبيتهم للأمويين من اهم الاسباب في الثورة على عثمان . وقد كلمه المغيرة بن شعبة في شأن ولاة عثمان واشار عليه بان يثبت هؤلاء الولاة على اعمالهم حتى تتم البيعة له في تلك الولايات ويهدأ الناس « ارسل الى عبد الله بن عامر والى معاوية والى عمال عثمان بعهودهم تُقرهم على اعمالهم ويبايعون لك الناس ، فانهم يهدئون البلاد ويسكنون الناس »[2] ولكن عليا أبى ذلك وأرسل عماله على الامصار : « فبعث عثمان بن حنيف (الانصاري) على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وكانت له هجرة ، وعبد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام »[3] فاختيار علي لهؤلاء الولاة على الأمصار الكبرى في دولة الخلافة ، اصاب قريشاً بضربة قاسية في كبريائها وسلطانها ونفوذها ، لان هؤلاء الولاة جميعاً من غير قريش . وربما كان اختيار علي لهؤلاء العمال « لأنه أراد أن يرضي الأنصار بهذا الاختيار ، فهو قد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة : البصرة والشام ومصر »[4] . ودخلت هذه الامصار في بيعة علي ما عدا ولاية الشام حيث ردَّ واليها الذي ارسله علي وامتنع سكانها عن الدخول في

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٤٢ .
٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٣٩ .
٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٤٢ .
٤ - طه حسين : الفتنة الكبرى (٢) علي بن ابي طالب مجلد ٤ ص ٤٥٠ .

الجماعة . وساعد ذلك تجديد حدة انقسام المسلمين وتصدع وحدتهم .

كذلك فقد كان لسياسة علي بن ابي طالب المالية وموقفهُ الصارم من الثروات التي تكونت في ايام عثمان باسباب غير مشروعة ، واسلوب توزيع العطاء اثره في معارضة طبقة من المسلمين ، كانت تتمتع بالامتيازات والثروات الهائلة زمن عثمان بن عفان فقد أعلن بن ابي طالب في الخطب الأولى التي استهل بها حكمه مصادرة جميع ما اقتطعه عثمان من القطائع ، وما وهبه من الاموال العظيمة لطبقة الارستقراطيين ، كما اعلن انه يتبع مبدأ المساواة في العطاء فقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق »[1] وقال في خطاب آخر : « الاّ لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الانهار وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً ، اذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، واخرتهم الى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ويتسنكرون ويقولون : حرمنا ابن ابي طالب حقوقنا ، . . . فانتم عباد الله ، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل منه لاحد على احد »[2] . كذلك فقد اعلن العودة الى نظام التسوية في العطاء الذي كان يطبقه الرسول (ﷺ) وابو بكر ، ولما احتج زعماء قريش على التسوية بين المسلمين في العطاء قال علي : « وأما ما ذكرتم من امر الاسوة فان ذلك امر لم احكم انا فيه برأيي ولا وليته هوى مني ، بل وجدت انا وانتما ما جاء به رسول الله (ﷺ) قد فرغ منه فلم احتج اليكما فيما قد فرغ الله من قسمه وامضى فيه حكمه »[3] وهكذا فقد استطاع علي ان يحسم بسرعة قضية الادارة ويقضي على التفاوت الطبقي في المجتمع الاسلامي الذي كان قائماً زمن عثمان ، واضعف بذلك قوة الطبقة الارستقراطية التي تكونت في عهد عثمان ، وذلك حين صادر قطائع عثمان والأموال التي أعطاها . وقد كان لهذه السياسة اثرها السيء في

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٦٩ .
٢ - المصدر السابق : ج ٧ ص ٣٧ .
٣ - نهج البلاغة : ج ٢ ص ٢١١ .

نفوس الارستقراطية القرشية وهو ما يعبر عنه ابو جعفر « وكان هذا اول ما انكروه من كلامه عليه السلام واورثهم الضغن عليه وكرهوا اعطاءه وقسمه بالسوية »(١) .

وقد حاول قادة الطبقة الارستقراطية القرشية مساومة علي بن ابي طالب على بذل طاعتهم له فارسلوا اليه الوليد بن عقبة بن ابي معيط يقول له : « يا ابا الحسن ، انك قد وترتنا جميعاً . . . ونحن اخوتك ونظراؤك في بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على ان تضع عنا ما اصبناه من المال في ايام عثمان ، وان تقتل قتلته ، وانا ان خفناك تركناك فالحقنا بالشام »(٢) . ولما ايقن زعماء هذه الطبقة انهم لن يفلحوا عن طريق المساومة والتهديد في تحقيق مآربهم والاحتفاظ بالمكاسب الاقتصادية التي جنوها في عهد عثمان لجأوا الى السعي لنقض البيعة . وكان من ابرز افرادها طلحة والزبير وقد كانا قد طالبا في بدء خلافه علي بالإمارة على البصرة والكوفة ، ولكن عليا ردهما رداً رقيقاً بقوله لهما « تكونان عندي فاتحمل بكما ، فاني وحش لفراقكما »(٣) .

وهكذا فعندما لم يتمكن طلحة والزبير من تحقيق اهدافهما في السيادة والغنى احتجا بانهما « بايعا عليا كارهين غير طائعين »(٤) .

واستأذن طلحة والزبير عليا في العمرة وقد شعر علي بان طلحة والزبير يخططان لأمرٍ ما فقال لهما عندما دخلا عليه يستأذناه : « ما العمرة تريدان ، انما تريدان العذرة ونكث البيعة »(٥) . ولكنه أذن لهما .

وهكذا فان طلحة والزبير حين لم يتمكنا من تحقيق اهدافهما خرجا الى مكة حيث تجمعت الفئات المعارضة لعلي من بني امية وانضمت اليهما ام المؤمنين السيدة عائشة . ولا بد هنا من الاشارة الى التغير المفاجيء في موقف عائشة من ناقمة

---

١ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٧ ص ٣٧ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٧ ص ٣٨/ ٣٩ .
٣ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٢٩ .
٤ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ والطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٠ .
٥ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٣٢ .

على عثمان إلى مطالبه بالثأر له بعد تسلم على بن ابي طالب أمور الخلافة . . فقد كانت من قبل تحرض على قتل عثمان وتقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر »[1] ولكنها عندما علمت بمقتله وباجتماع اهل المدينة على علي انصرفت راجعة الى مكة بعد ان قضت عمرتها وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه »[2] . فان ابن أبي الحديد يشير الى هذاالتغير ويعلله بقوله : «وقد كانت عائشة اشدالناس تأليبا وتحريضاً على عثمان فقالت : ابعده الله ! لما سمعت قتله واملت ان تكون الخلافة في طلحة فتعود الإمرة يتمية كما كانت اولاً ، فعدل الناس عنه الى علي بن ابي طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت : واعثماناه قتل عثمان مظلوماً »[3] وهنا تظهر النزعة القبلية ، فهي تفضل ان تكون الخلافة في تيم رهط ابي بكر ، ورهطها ، وتكره أن يليها بنو هاشم ، هذا بالاضافة إلى « الخصومة التي كانت بين علي وعائشة والتي كان لحادثة الإفك أبعد الاثر واعمقه في نفس عائشة فحقدت على كل الذين اتهموها ، وكان علي منهم حتى انه اشار على النبي بتطليقها قائلاً : والنساء سواها كثير . . . فكان موقف علي سبباً في ان يثير في نفس عائشة ألماً وحقداً »[4] .

وركز المعارضون لعلي على البصرة في دعوتهم ضده وانما كان اختيارهم كما اشار عليهم عبد الله بن عامر «فان لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى»[5]. وكانت السيدة عائشة وطلحة والزبير رؤساء وقواد الثورة على علي ، وقد استطاعوا ان يستولوا على البصرة . اما علي فقد سار على العراق وقصد الكوفة « فاهل الكوفة اشد حباً لعلي وفيهم رؤوس العرب واعلامهم »[6] وهكذا فقد تبلور انقسام

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥٩ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٥٩ وفي موضع آخر تقول السيدة عائشة « ان عثمان قتل مظلوما وان الامر لا يستقيم ولهذه الغوغاء امر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزواالاسلام » ج ٤ ص ٤٤٩ :
٣ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ١٩٩ .
٤ ـ زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢٤٠ .
٥ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥٠ .
٦ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٧٧ .

المسلمين في هذه الموقعة في اتجاهين حزبيين متصارعين.الاتجاه الاول ويشتمل على شيعة علي وفيهم أهل الكوفة ويتمثل الاتجاه الثاني في عائشة وطلحة والزبير وأهل البصرة ، وكانت نتيجة المعركة التي عرفت بحرب الجمل « ان الزبير قتله ابن جرموز وقت الانصراف . وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم وقت الإعراض (عندما اعتزل في بعض الصفوف فخر ميتا) واما عائشة فكانت محمولة على ما فعلت ثم تابت بعد ذلك ورجعت »[1] .

والواقع ان من اهم اسباب الثورة على علي في هذه المعركة لم يكن الثأر لمقتل الخليفة عثمان وانما كانت نتيجة صراع على تولي السلطة ، فالصراع ضد علي قام به جميع الطامعين في الخلافة ، وقد اخذوا من مقتل عثمان والثأر له ذريعة لاثارة الجماهير . والطبري يؤكد الغاية من خروج طلحة والزبير على علي في معركة الجمل بانها الطمع في الخلافة فيقول : « خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الامر اصدقاني . قالا : لاحدنا اينا اختاره الناس »[2] وفي هذا الاتجاه يقول ابن ابي الحديد : « لما قتل عثمان ارادها طلحة وحرص عليها (اي الامارة) فلولا الاشتر وقوم معه . . . جعلها في علي لم تصل اليه ابداً فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على علي وأخرجا ام المؤمنين معهما وقصدا العراق واثارا الفتنة »[3] .

« وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هي ان الخلافة القديمة قد انتهت في مدينة الرسول وان الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة وقضي على قداسة الخلافة وصار الحكم في النزاع عليها الى السيف »[4] .

فبعد معركة الجمل انتقل مركز الخلافة الى الكوفة وانتقل مركز الثقل السياسي الى خارج شبه الجزيرة العربية ، واصبحت قوة الدولة في الأمصار ، ولا سيما بعد ان

---

١ ـ الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢٢ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥٣ .
٣ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٢٩ .
٤ ـ فلهاوزن . تاريخ الدولة العربية ص ٥٣ .

هاجرت اليها قبائل كثيرة وسكنت فيها وقطعت صلتها بالجزيرة . فالحقيقة انه بعد عصر الفتوح ، وهجرة القبائل إلى الأمصار ، واتساع رقعة الدولة وتشابك المصالح ونشأة الحزبية السياسية ، كان من الطبيعي أن لاتبقى المدينة وجماعة الناس الذين ظلوا يسكنونها المسيطرين الوحيدين على تسيير الأمور . فقد بدأ شأن الأمصار يعلو ويظهر أثره في تقرير شؤون الدولة الاسلامية منذ الثورة على عثمان ومقتله . فقد صار للقبائل التي سكنت في تلك الامصار قوة لا يستهان بها . فعلي لا يستطيع الاقتصاص من الثوار الذي قتلوا الخليفة الثالث فهو يخاطب الصحابة في شأنهم « كيف اضع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبداتكم ، وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون »[1] . وهكذا فانه نتيجة لتغيير ظروف الدولة الجديدة

فقد أدت المنازعات السياسية وافتراق المسلمين الى شيع واحزاب الى تصدع الرابطة القبلية في كثير من الاحيان ، ولا سيما حين تكون بطون القبيلة الواحدة تنزل مواطن شتّى فتسير كل جماعة منها في ركاب الرجل او الحزب الذي له الغلبة في ديارها . ففي معركة الجمل نرى ان القبائل التي استوطنت البصرة ناصر جلّها عائشة وطلحة والزبير ، في حين ان قبائل الكوفة وقفت إلى جانب علي . وهكذا برز عامل جديد خضع العربي لسلطانه وهو التحزب السياسي بمفهومه الواضح الدقيق

ففي معركة الجمل ، نرى اثر التحزب السياسي واضحاً في القتال الذي نشب بين قبائل البصرة والكوفة ، والذي كان في الحقيقة قتالاً بين فروع لقبائل تجمعها العصبية المشتركة ، حتى ليخيل الينا ان العصبية القبلية قد اندثرت في نفوس افراد تلك القبائل . ولكن الحقيقة ان عامل التحزب السياسي قد طغى على النفوس منذ ان صار لكل بلد غرض خاص في السياسة ، فاجتمع اهل البلد الواحد على هدف سياسي موحد ، بالرغم من كونهم اخلاطاً من قبائل شتى تختلف نسباً وعصبية .

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٧ .

« ففي وقعة الجمل تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعة الى ربيعة ، فكان بعضهم بحيال بعض »[1] . كذلك ففي اثناء القتال « هزمت يمن البصرة يمن الكوفة وربيعة البصرة ربيعة الكوفة ، ونهد علي بمضر الكوفة الى مضر البصرة »[2] .

وهكذا فقد وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر وهو ما ينافي العصبية القبلية ، ولكنه يظهر اثر التحزب السياسي الذي سيطر على النفوس .

وبعد معركة الجمل استطاع علي من مقر خلافته في الكوفة ان ينشر سيادته على جميع اجزاء الدولة الاسلامية ما عدا ولاية الشام التي لم تدخل في الجماعة لذلك وجه علي جرير بن عبد الله البجلي الى معاويه يدعوه الى البيعة[3] ولكن معاوية يأبى البيعة لعلي ويبايعه اهل الشام على الطلب بدم عثمان اميراً لا يطمع في الخلافة ثم الامر شورى[4] .

فأهل الشام ظلوا على ولائهم لمعاوية بن ابي سفيان اذ « كان لهذه الولاية مركز انفردت به لان معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا اليها مهاجرين كغيرهم ، وكان لهم الى جانب ذلك تقاليد غير التي كانت لاهل الكوفة والبصرة . .

وكانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود »[5] .

وكان لا بد من المواجهة بين علي ومعاوية ، اذ لا يصح ان تبقى ولاية من الولايات الاسلامية وهي ولاية الشام خارجة عن طاعة الخليفة الرابع . فقد كان علي في نزاعه مع معاوية يمثل حقوق الدولة ضد ما يطالب به معاوية والامويون من الثأر

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٠٥ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٤ ص ٥١٤
٣ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥١٦ والمبرد : الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ١٩٠ .
٤ ـ نصر بن مزاحم : وقعة صفين ج ٢ ص ٨٢ .
٥ ـ فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٥ .

لمقتل قريبهم عثمان . وكانت معركة صفين التي تعتبر العامل الفعال في وضوح الرؤية الحزبية في المجتمع الاسلامي . ففي صفين انحصر الصراع بين المسلمين في اتجاهين حزبيين محددين :

الاتجاه الاول ويمثله اهل العراق المؤيدون لعلي والاتجاه الثاني ويمثله اهل الشام المؤيدون لمعاوية اضافة الى من انضم اليهم ممن هرب من اصحاب الجمل كعتبة بن ابي سفيان وعبد الرحمن ويحيى ابني الحكم وابن عامر[1] كذلك « فمن كان بالكوفة والبصرة من العثمانين قد هربوا فنزلوا الجزيرة في سلطان معاوية »[2] .

وقد اتخذ كل فريق اسبابا وحججاً لتبرير موقفه من قتال الفريق الآخر . « فمعاوية واهل الشام خالفوا عليا ودعوا الى الطلب بدم عثمان »[3] . أما علي فكان يرى انه بريء من دم عثمان « وان عليه قتال معاوية لخروجه عن « الطاعة والجماعة »[4] .

ولم يكن اصحاب علي يجهلون غاية معاوية في هذا الصراع وانه انما كان يبغي الامرة والسلطان . فشبث بن ربعي يقول لعلي : « يا امير المؤمنين ، الا تطمعه في سلطان توليه اياه ومنزلة يكون له بها اثره عندك انه هو بايع »[5] فقد كانوا يعلمون ان مخالفة معاوية لبيعة علي انما كانت مناورة سياسية الهدف منها الضغط على الخليفة لتخفيف اهدافه واطماعه في السيطرة على بلاد الشام كذلك فان شبث بن ربعي يبنى لمعاوية الغاية من خروجه على علي والوسيلة التي اصطنعها لاستمالة الناس وتأييدهم له ولتبرير هذا الخروج فيقول له : يا معاوية ، اني قد فهمت ما رددت على ابن محصن ، اني والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، انك لم تجد شيئاتستضوي به

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٣٥ .
٢ - نصر بن مزاحم : صفين ج ١ ص ١٢ .
٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٥ .
٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٧٣ .
٥ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٥٧٣ .

الناس وتستميل به اهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : « قتل امامكم مظلوماً فمن نطلب بدمه »[1] .

وفي قول عمار بن ياسر ما يؤكد بان غاية معاوية ومن ساندة في القتال لم تكن إلاّ تحقيقاً للطامعه السياسية في الحكم فهو يقول : « ايها الناس ، اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذي يبغون دم ابن عفان ، ويزعمون انه قتل مظلوماً ، والله ما طلبتهم بدمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها وعلموا ان الحق اذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم ، ولم يكن للقوم سابقة في الاسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم ، فخدعوا اتباعهم ان قالوا : اما منا قتل مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً »[2] .

ومعاوية يعترف بان صراعه مع علي انما هو صراع على السلطة والامارة .

ففي قوله لعمرو بن العاص « طمعت فيها بعدي »[3] اي الامارة وذلك حين طالبه على بن ابي طالب بالمبارزة حقناً لدماء المسلمين واشار عليه عمرو بن العاص بذلك ما يبرز غاية معاوية من القتال . كذلك ففي كتابه الى قيس بن سعد امير مصر يستميله للوقوف الى جانبه ضد علي يقول له : « تابعنا على امرنا ، ولك سلطان العراقين اذا ظهرتُ ما بقيت ، ولمن احببت من اهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان »[4] .

فالصراع في صفين بين علي بن ابي طلب ومعاوية بن ابي سفيان كان صراعاً سياسياً على سلطة يتنازعها بطنان من بطون قريش (بني هاشم وبني امية) لكل منهما مبادئه واهدافه والمصالح التي يمثلها وعلي هو القائل « نحن وآل ابي سفيان قوم تعادوا في الامر »[5] فالحقيقة ان بني هاشم وبني امية يجتمعان في بني عبد مناف

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٧٣ .
٢ ـ المصدر السابق ج ٥ ص ٣٩ .
٣ ـ المصدر السابق ج ٥ ص ٤٢ .
٤ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥٥٠ .
٥ ـ ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٨٠ .

ولكن علياً يرد على معاوية مذكراً اياه بهذه الحقيقة فيعترف بها ، ولكنه يذكره بالفرق بين الأسرتين فيقول : واما قولك انا بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية لهاشم ولا حرب كعبد المطلب ، ولا ابو سفيان كابي طالب[1] «فانا صنائع ربنا والناس تعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومكم ان خلطناكم بانفسنا ، فنكحنا وانكحنا ، فعل الاكفاء ولستم هناك وانما يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا اسد الله ، ومنكم اسد الاحلاف ، ومنا سيدا شباب اهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم ، فاسلافنا قد تسمع وجاهليتنا لا تدفع »[2] .

فالعصبية لبني هاشم تظهر جلية في قول علي بن ابي طالب وتلعب دورها الهام في هذا الصراع على السلطة . فبالرغم من مواقف الامام علي المناهضة للعصبية وللروح القبلية في خطبه ودعوته الصريحة الى مجانبه العصبية نراها تطل برأسها عندما يتعلق الامر في موضوع الخلافة .

ففي خطبته القاصمة دعوة صريحة الى ذم العصبية والضرب على ايدي الداعين اليها « اطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية واحقاد الجاهلية ، فانما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته »[3] « وان كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الافعال »[4] .

ومما يلفت النظر في صفين ان العصبية القبلية قد لعبت دوراً هاماً في الصراع الدائر بين علي ومعاوية ، ولكن هذا الدور كان يختلف احياناً عما كان لها قبل ظهور الحزبية السياسية . فمفهوم العصبية القبلية الذي كان يحتم على افراد القبيلة ان

---

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٦١ ونهج البلاغة ج ٣ ص ١٩ .

٢ - نهج البلاغة : ج ٣ ص ٣٦ (المقصود : بالمكذب : ابو سفيان - اسد الله : حمزة بن عبد المطلب اسد الاحلاف : عتبة بن ابي ربيعة -سيدا شباب اهل الجنة: الحسن والحسين - صبية النار : اولاد مروان بن الحكم - خير نساء العالمين : فاطمة ابنة الرسول (ﷺ) - حمالة الحطب : ام جميل بنت حرب .

٣ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٦٥

٤ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٧٥

ينصروا اخاهم ظالماً كان ام مظلوماً نراه قد تغير واصبح يعمل دعماً وتأييداً لفكرة الحزبية السياسية .

فقد كانت معركة صفين مظاهـرة قبلية ضخمـة واول احتـكاك قبلي واسـع النطاق يشهده العصر الاسلامي . فالقبائل التي شاركت في هذه المعركة من اخماس البصرة واسباع الكوفة كانت تضم اعداداً ضخمة من حيث تنوعها وكثرتها . فهناك قبائل بكر بن وائل ، وعبد القيس ، والأزد ، وتميم ، واهـل العـاليه في البصرة وقيس وعبد القيس ، وتميم وضبة والرباب وقريش وكنان واسد وبجيلـة وخثعـم والانصار وخزاعة وكندة وقضاعه ومهرة ومذحج والاشعريين وحمدان وحمير وطيء في الكوفة والشام[1] فهذه القبائل التي اشتركت في صفوف جيش علي وجيش معاوية كانت مختلفة الأنساب والعصبيات . ولكن الملاحظ انه في اثناء القتـال كانـت كل قبيلـة تحرص ان تقف بازاء اختها وتتكفل بامر قتالها « فعلي يقول للازد اكفوني الازد ، ولخثعم اكفوني خثعماً ، وامر كل قبيلة من اهل العراق ان تكفيه اختها من اهـل الشام ، الا قبيلة بجيلـة التـي لـم يكن بالشـام منهم الا عدد يسير فصرفهـم الى لخم »[2] .

فهذه الظاهرة التي جعلت القبائل تؤثر ان تقف كل قبيلة بازاء اختها تقاتلها انما يظهر اختلاف الاهواء السياسية لرجال هذه القبائل وخضوعهم لسلطان التحزب السياسي ولكن القبيلة حين كانت تضطر لقتال اختها ، لم تكن تنسى صلات الرحم والعصبية التي تربطها بها . وكان ذلك يثير في النفوس الكثير من الحزن والأسى . فحين ندب ازد العراق الى ازد الشام قال مخنف بن سليم : « ان من الخطب الجليل والبلاء العظيم ، انا صرفنا الى قومنا وصرفوا الينا ، فوالله ما هي إلاّ ايدينا نقطعها بايدينا ، وهي الان اجنحتنا نحذفها باسيافنا »[3] كذلك فعندما عزم علي على المسير

---

١ ـ نصر بن مزاحم : صفين ج ٢ ص ١١٧ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٤ ونصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٢٢٩ .
٣ ـ نصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٢٦٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٦ مع تغير في اللفظ .

الى صفين لقتال اهل الشام « احتج رجل من بني فزارة على المسير الى الشام فقال : اتريد ان تسيرنا الى اخواننا من اهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا الى اخواننا من اهل البصرة فقتلناهم »(١) فقد كانت بعض هذه القبائل تشعر بانها تتقاتل انتصاراً لرجلين من قريش وتحقيقا لمآربهما السياسية ومطامعهما في الحكم والخلافة ، وانها انما كانت مرغمة على القيام بهذا العمل وذلك دعماً وتأييداً للاتجاه الحزبي الذي تؤيده والتي تنتمي اليه ، وانتماؤها الحزبي هذا يحتم عليها اطاعة وتنفيذ ما يحقق اهداف هذا الاتجاه .

فعندما « حمل شمر بن عبد الخثعمي من اهل الشام على ابي كعب رأس خثعم الكوفة فطعنه فقتله انصرف يبكي ويقول : رحمك الله يا أبا كعب ، لقد قتلتك في طاعة قوم انت امس بي رحماً منهم واحب الي نفساً منهم ، ولكن ما ادري ما اقول ، ولا ارى الشيطان الا قد فتننا ، ولا ارى قريشاً الا قد لعبت بنا »(٢) .

كذلك ففي صفين سمعت امرأة وقد قتل لها ثلاثة اولاد وهي تقول :

اعينـــي جودا بدمـــع سرب ... على فتية من خيار العرب
وما ضرهـــم غـــير جنـى النفوس ... باي امـرىء من قريش غلب(٣)

ولكن العصبية القبلية كانت كثيراً ما تظهر في صفوف الجيش الواحد بمفهومها التقليدي حين يحدث التنافس بين قبيلتين مختلفتين في النسب لاسباب عديدة . فقد حدث التنافس بين ربيعة ومضر في جيش علي بن ابي طالب وذلك حين شعرت مضر بايثار علي لربيعة ،وبتفضيله لها فقد « كان علي لا يعدل بربيعة احداً من الناس ، فشق ذلك على مضر واظهروا لهم القبيح ، وابدوا ذات انفسهم وقالوا لعلي : ان هذا الحي من ربيعة قد ظنوا انهم اولى بك منا ، وانك لهم دوننا فاعفهم عن القتال اياماً واجعل لكل امريء يوماً يقاتل فيه فانا اذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا »(٤) .

---

١ ـ نصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٩٤ .
٢ ـ نصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٢٥٧
٣ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠
٤ ـ نصر بن مزاحم : صفين ج ٥ ص ٣٠٩

كذلك فبعض قبيلة عك كان يدعو قومه الى الاستبسال في القتال حتى لا تشمت به مضر[١] وان ظهور العصبية القبلية في هذه المواقع وضمن صفوف الجيش الواحد انما كان يهدف الى مناصرة وتأييد الاتجاه الحزبي الذي تسير في ركابه ودعمه .

ولكن معركة صفين لم تنته بانقسام المسلمين في اتجاهين حزبين كما بدأت ، بل ان تسارع الاحداث ووقوع امر التحكيم أدّى الى ظهور اتجاه حزبي جديد ضمن الجماعة الاسلامية .

ففي ليلة الهرير[٢] كادت الدائرة تدور على معاوية واهل الشام لولا ان لجأ عمرو ابن العاص الى الحيلة وامر اهل الشام برفع المصاحف على رؤوس الرماح وذلك لايقاع الفرقة في صفوف اهل العراق فعمرو بن العاص يشير على معاوية بقوله : « نرفع المصاحف ثم نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم ، فتكون فرقه تقع بينهم »[٣] ويدرك علي حيلة عمرو بن العاص ويقول لاصحابه : « ويحكم ! انهم ما رفعوها ، ثم لا يرفعونها ، ولا يعلمون بما فيها ، وما رفعوها لكم الا خديعة ودهناً ومكيدة »[٤] ولكنه يضطر الى قبول التحكيم تحت الحاح وتهديد جماعة ممن كانوا معه في حرب صفين منهم : « الاشعث بن قيس ، ومسعر بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصن الطائي حين قالوا : القوم يدعوننا الى كتاب الله ، وانت تدعونا الى السيف . . . لترجعن الاشتر عن قتال المسلمين ، والا لنفعلن بك كما فعلنا بعثمان ، فاضطر الى رد الاشتر بعد ان هزم الجمع وولوا مدبرين »[٥] . وقد تابع الاشعث القيام بدور الوسيط بين الطرفين المتحاربين ، وكان له دور كبير في اختيار ابي موسى الاشعري حكماً عن اهل العراق . فقد كان علي يريد ان يبعث عبد الله بن عباس ولكن الاشعث يتذرع بالعصبية القبلية لتبرير

---

١ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٥ ص ٣٠٢ .
٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٧ .
٣ - المصدر السابق :ج ٥ ص ٤٨.
٤ - المصدر السابق : ج ٥ ص ٤٩ والمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨
٥ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧١

عدم موافقته على اختيار عبد الله بن عباس لكونه مضرياً كما كان عمرو بن العاص الذي اختاره اهل الشام حكماً لهم ، فهو يقول : « لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلاً من اليمن اذ جعلوا رجلاً من مضر . . والله لا يحكما ببعض ما نكره واحدهما من اهل اليمن ، احب الينا من ان يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان »[1] وهنا تظهر العصبية بين المضرية واليمينية .

وقد كان لطبقة القراء في العراقيين التأثير الحاسم ، فهم الذين حملوا الناس على قبول التحكيم وارغموا عليا على التسليم به ، ولكنهم ايضاً كانوا من اشد الناس ثورة واحتجاجاً على معاهدة الصلح وقرار التحكيم الذي انتهى لغير صالحهم . فقد اعتبروا ان الفصل في موضوع الخلافة لا يصح ان يوكل الى البشر بل ينبغي الاحتكام فيه الى الحرب والكفاح . وهكذا اتخذوا « لا حكم الا لله » شعاراً لهم وانسحبوا من جيش علي واصحابه[2] . وعرفوا في تاريخ الاسلام بسبب انفصالهم « بالخوارج بعد ذلك[3] . وقد انكروا حق كل من معاوية وعلي في الخلافة . وكان شعارهم « لا حكم الا لله » يعني رفض التحكيم ونتائجه فقط ، بل ورفض امارة علي ولذلك كان تعليق علي عندما سمع هذا الشعار : « كلمة عادلة يراد بها جور ، انما يقولون لا أمارة ولا بد من امارة برة او فاجرة »[4] .

وقد استطاع معاوية بمواهبه السياسية ودهائه من استغلال الموقف الذي فُرض على علي وأدى الى انقسام خصوم بني امية قسمين جديدين : فهناك الخصومة الدينية التي لا تقبل المصالحة والتي بلغت اوجها في مذاهب الخوارج والمتطرفين ، وهناك ايضاً الشيعة الذين يؤيدون علياً . وكان هذا الانقسام من حسن حظ الامويين الذين مثلوا دور المعتدلين الذين ارادوا ان يحافظوا على القانون والنظام امام الحروب التي كادت تبيد العراق .

---

١ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٨ ص ٥٠٠
٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٢
٣ - المصدر السابق ج ٥ ص ٤٩ .
٤ - المبرد : الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١٣١

وانتهى الامر بالمسلمين بعد مقتل علي سنة ٤٠ هـ[١] . وحين ولي معاوية الخلافة[٢] انهم كانوا ثلاثة احزاب :

١ ـ حزب بني امية : ومقره بلاد الشام ، وقد كان له من النفوذ في ذلك الحين ما مكنه من ايصال الامويين الى الحكم ، اذ كان اعضاؤه يرون ان امراء هذا البيت احق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (ابو بكر وعمر وعثمان) وانهم اصحاب الحق بالاخذ بثأر عثمان لما كانت تربطهم به من اواصر القرابة .

٢ ـ حزب الشيعة : وهم انصار اهل البيت المدافعون عن حقوقهم في الخلافة ولاسيما حق علي بن ابي طالب ومقرهم العراق .

٣ ـ حزب الخوارج : « وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الاكفاء أنى كانت الطبقة التي ينتمون اليها »[٣] .

وقد كان لكل حزب من هذه الاحزاب اتباع وشيع يدينون برأيه في الخلافة . وعلى هذا اخذ كل حزب يناضل غيره من الاحزاب واشتد النزاع بينها واستمر طيلة الحكم الاموي والعباسي .

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٤٨

٢ ـ المصدر السابق ج ٥ ص ١٦٠

٣ ـ فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٠ .

الفصل الثالث

نشأة الفرق الاسلامية .

كان لمعركة صفين وللتحكيم اثرهما الجلي في وضوح الرؤية الحزبية في المجتمع الاسلامي . فقد صار المسلمون بعدهما احزابا وشيعاً ، كل حزب يرى ان الحق بجانبه وان المصلحة تتحقق في استخلاف من يؤيده . ونحن اذا نظرنا الى نشأة هذه الأحزاب بالمفهوم الحديث للحزبية لقلنا انها مسألة سياسية خالصة ، فالصراع بين المسلمين كان صراعاً سياسياً حول منصب الخلافة وحول احقية كل طرف من اطراف النزاع في هذا المنصب . ولكن الامر لم يكن على هذا النحو في ذلك العصر ، بل ان هذه الاحزاب السياسية اصطبغت بصبغة دينية قوية ، نظراً لما كان للدين من أثر ومكانة في النفوس في ذلك العصر ، لذلك فقد « اصطبغت الاحزاب السياسية صبغة دينية قوية ، وصار كل حزب سياسي فرقة دينية وصار الذين يقتتلون سياسيا يقتتلون دينيا ، وبدل ان يسمى الحزب اسماً سياسياً يدل على المبدأ السياسي الذي يدعو اليه ، تسمى اسماً يدل على المذهب الديني : كشيعة وخوارج ومرجئة ، وبدل أن يتحاجوا بما ينتج عن اعمالهم من مصالح ومفاسد تحاجوا بالكفر والايمان والجنة والنار »[1] .

وهكذا كان الخلاف السياسي سبباً من أسباب الخلاف الديني وسبباً في نشوء العقائد والفرق . . .

---

١ ـ احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٥

« فجميع اصول الفرق كلها الجامعة لها اربع فرق : « الشيعة » « والمعتزلة » و« المرجئة » و« الخوارج »[1] .

اما فيما يختص بأمر هذه الفرق الإسلامية فلسنا هنا في معرض تفصيل القول في الاراء والافكار لهذه الفرق وإن ما يهمنا هو نشأة تلك الفرق وأثر العوامل السياسية في ظهورها وتطورها . فأهمية دراسة الفرق الاسلامية تعود إلى أن هذه الفرق هي تعبير صادق عما كان يعيشه المجتمع الاسلامي من صراعات حادة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية .

---

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٥ والشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٦ . « يعدها اربع فرق : القدرية (المعتزلة) - الصفاتية (المرجئة) - الخوارج - الشيعة ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب عن كل فرقة اصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة » .

الشيعة

الشيعة هو الاسم الشامل لمجموعة كبيرة من فرق اسلامية مختلفة ترجع نشأتها جميعاً الى القول بان عليا هو الخليفة الشرعي بعد وفاة النبي والشيعة لغة « هم الصحب والاتباع . ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي رضي الله عنهم »[1] .

والشيعة في كتب الفرق « هم الذين شايعوا عليا رضوان الله عليه ويقدمونه على سائر اصحاب رسول الله (صلعم) »[2] وهم ايضاً القائلون بامامته وخلافته نصاً ووصية اما جلياً أو خفياً »[3] .

أما لفظة شيعة فكانت تستعمل قديما بمعنى الصحب والاتباع ولم تكن مقصورة على اصحاب علي وحدهم وانما كان لمعاوية شيعة ايضاً . فقد جاء في نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بعد رفع المصاحف في صفين « هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، قاضى علي على اهل العراق ومن كان شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضي معاوية على اهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين »[4] . وفي الطبري اشارات عديدة الى لفظة الشيعة بمعنى الصحب والاتباع . فمعاوية يقول لأهل الشام : « لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة » وفي موضع آخر يقول معاوية : « وهممت ان

---

١ ـ الزبيدي : تاج العروس مجلد (٥) ص ٤٠٥ وابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٨

٢ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٥ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢ .

٣ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٥ .

٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٣ ونصر بن مزاحم : صفين ص ٥١٠

اكتب بذلك الى شيعتي من اهل العراق »[١] . اما نشأة حزب الشيعة فيعود الى زمن وفاة النبي (ﷺ)[٢] ومن اعضاء هذا الحزب في ذلك الوقت «المقداد بن الاسود وسلمان الفارسي وابو ذر جندب بن جنادة الغفاري وعمار بن ياسر»[٣] ذلك انه عندما توفي النبي (ﷺ) ولم يعرف المسلمون معرفة صحيحة رأيه في ولاية الحكم في الجماعة الاسلامية ، اصبحت المسألة المهمة الشاغلة لاذهان المسلمين هي الفصل في مسألة الخلافة او الامامة . وقد نشأ بين كبار الصحابة منذ بدأت مشكلة الخلافة حزب نقم على الطريقة التي انتخب بها الخلفاء الثلاثة ابو بكر وعمر وعثمان الذين لم يراع في انتخابهم درجة القرابة من اسرة النبي ، وقد فضل هذا الحزب عليا ولكنه لم يدخل في نزاع مكشوف للدفاع عن ولاية الحكم . ولكن عندما استقر الامر لعثمان ورأى فيه الامويون استعادة لمجدهم القديم اشتدت الدعوة عند شيعة علي حتى اذا قتل عثمان برز الحزب الشيعي او شيعة علي بن ابي طالب مقابل حزب معاوية او شيعة معاوية وكان حزب الشيعة ككل حزب ينضم اليه المخلص لمبادئه ، ومن يرى المنفعة فيه . فتشيع قوم ايماناً بأحقية علي للخلافة واولاده من بعده ، وتشيع قوم كرهوا الحكم الاموي « لأنهم كرهوا ان يروا سوادهم في ايدي الامويين الذين كانوا يطلقون عليه بستان قريش »[٤] ، كذلك فقد تشيع كثير من الموالي لانهم رأوا الحكم الاموي حكماً مصبوغاً بالارستقراطية العربية وان الامويين لم يعاملوهم معاملة العرب [٥] . فمن خلال دراسة الحركة التي قام بها المختار بن ابي عبيدة الثقفي نرى المصادر العربية تذكر ان المختار اتجه بدعوته بالدرجة الاولى الى اوساط الناس وعامتهم . وبما ان عنصر الموالي كان اكثره ينتمي الى الطبقات المضطهدة توجه المختار بدعوته اليها ، فكثر عنصر الموالي بين اصحاب المختار .[٦] فاصحاب

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٥٢ .
٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢
٣ - المصدر السابق ص ١٦
٤ - فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٦ .
٥ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢ وما بعدها (باب المتعصبين للعرب) .
٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٥ - ٢٨ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٩ .

المختار كانوا في اغلبيتهم العظمى من الفئات المحرومة ان عرباً او موالي ، فهذه الطبقات المحرومة وجدت في التشيع مخرجاً للخلاص من محنتها الاقتصادية والاجتماعية »[1] . « فالمختار جعل للموالي من الفيء نصيبا »[2] وهذا يعتبر من المكاسب التي حصل عليها الموالي في انضمامهم الى الشيعة . كذلك فالعداء القبلي فرض على قوم من قبائل العرب الانضمام الى الحزب الشيعي نتيجة تعصب بعض القبائل الأخرى للأمويين . والى جانب العرب تشيع قوم من الفرس وحاربوا الدولة الاموية وذلك كرهاً للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم ، فالحقيقة انه قد اعتنق التشيع كل من كان يريد استقلال بلاده والخروج عن مملكته .[3] وهكذا فقد ساعدت تلك الحالات الاجتماعية التي نشأت في الدولة العربية على انتشار عقائد الشيعة في جزء عظيم من الدولة الاسلامية بقدر ازدياد تذمر المسلمين وسخطهم ثم ضعف الدولة الاموية وانحلالها »[4] .

أما التاريخ السياسية للشيعة فهو عبارة عن ثورات متعددة ضد الحزب الاموي الحاكم « فالشيعة جسدت الرفض السياسي لبقاء السلطة خارج اهل البيت »[5] .

فقد حاربت شيعة علي الامويين أول الامر للدفاع عن حق علي في الخلافة فكانت معركة صفين ، ولكنهم اضطروا الى الاذعان والرضوخ فترة من الزمن بعد ان تولى معاوية الخلافة واصبح صاحب السلطان المطلق بعد تنازل الحسن بن علي له عن الخلافة ومغادرته الكوفة الى المدينة[6] .

وكان من اثر انتقال مركز الخلافة من العراق الى الشام زمن الامويين ان

---

١ ـ طريف الخالدي : دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٩ .
٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٤٣ ـ ٤٤
٣ - احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧
٤ - فان فلوتن : السيادة العربية الشيعة والاسرائيليات ص ٧٩ .
٥ - طريف الخالدي : دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٤ .
٦ - ابو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤٧

تمركزت المعارضة للحكم الاموي في العراق . فقد كان العراق من اشهر الاقاليم التي تمركز فيها الشيعة وكان جميع سكان العراق خصوصاً اهل الكوفة شيعة وكان علي في نظرهم رمزاً لسيادة بلادهم المفقودة »[١] . وقد تحركت الشيعة بقوة في عهد يزيد بن معاوية وذلك حين سار الحسين بن علي لقتاله . وكانت مأساة كربلاء سنة ٦١ هـ حين خذله الكوفيون بعد ان وعدوه بالنصرة .[٢] وقد تغيرت ظروف الشيعة عامة بعدمقتل الحسين فتحول تفضيلهم لعلي الى ولاء له وعداء لاعداء اهل بيته « فقد كان التشيع قبل مقتل الحسين رأياً سياسياً نظرياً لم يصل الى قلوب الشيعة ، فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم واصبح عقيدة راسخة في نفوسهم »[٣] لذلك فأول رد فعل مباشر لمقتل الحسين كان حركة التوابين في الكوفة سنة ٦٥ هـ الذين اعتمدوا على العاطفة الدينية وجعلوها العامل الاكبر في تحريك الناس فقد كان شعارهم « يالثارات الحسين »[٤] وقد خرج التوابون لقتال اهل الشام توبة على انفسهم لخذلانهم الحسين بن علي ولكنهم هزموا هزيمة منكرة في عين الوردة وقتل معظم رؤسائهم بمن فيهم سليمان بن صرد زعيم التوابين في ربيع الآخر من هذه السنة[٥] .

ثم كانت حركة المختار بن ابي عبيدة الثقفي الذي اتجه الى الكوفة واستولى عليها في ربيع الاول سنة ٦٦ هـ وامتد سلطانه حتى شمل سواد العراق والموصل وبعض بلاد الجزيرة والجبال واذربيجان وارمينية[٦] . وقد اتجه المختار الى الكوفة محاولاً الانطلاق منها بالثورة لان الكوفة كانت تمثل الحصن الحصين للتشيع وعندما اراد ان يستعين بالشيعة لانجاح ثورته اتخذ من شعار الثأر للحسين جوازاً الى نفوسهم وطريقة لاكتساب سندهم وكانت ابرز نقطة في برنامجه الذي طلب من الناس البيعة على أساسه « الطلب بدماء اهل البيت وجهاد المحلين »[٧] ولكنه

---

١ - فلهاوزن : احزاب المعارضة السياسية الدينية ص ١٤٨ .
٢ - ابو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٦٣ وما بعدها .
٣ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٣٩٩
٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٨٣
٥ - المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨٣ وما بعدها .
٦ - المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤
٧ - المصدر السابق ج ٥ ص ٦٠٦

اضاف الى العاطفة الدينية التي جعلها التوابون العامل الاكبر في تحريك الناس الاهتمام بشؤون الشيعة الاقتصادية المعاشية ، لذلك فقد كانت العبارة الاخيرة في البرنامج الذي طرحه على الناس اول وصوله الى الكوفة ان احد اهداف حركته كان « الدفع عن الضعفاء »[1] وكان يعني بها المستضعفين من الناحية الاقتصادية وبالتالي من الناحية الاجتماعية .

وقد كان اختيار المختار لحركته شعار الدفاع عن المقلين وعن الطبقات المحرومة اثره الكبير في نفوس هذه الطبقات التي وجدت في انضمامها الى المختار الامل في تحسين اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية لذلك فقد كثر عنصر الموالي بين اصحاب المختار[2]« وكان رئيسهم كيسان ابو عمرة مولى عرينة وهو صاحب حرس المختار او صاحب شرطته »[3] وكان يدرك المشكلات الاقتصادية لدى الكثير من الموالي ومن هم في مثل وضعهم الاقتصادي من العرب من ابناء الطبقة الدنيا ويبدي استعداده للتعاطف معهم . وقد وجد الموالي في انضمامهم الى حركة المختار ما كانوا يطمحون اليه حين منحهم الحقوق التي كانت للعرب من اهل الكوفة وذلك حين خاطبهم المختار يقوله : « انتم مني وانا منكم »[4] كذلك فقد حصلوا على بعض المكاسب المادية نتيجة انضمامهم الى حركته وذلك حين اعطاهم المختار « حين حصر ابن مطيع في التصر كل رجل خمسمائة درهم »[5] .

كذلك يمكننا ملاحظة الصراع الطبقي في المجتمع الكوفي ايام المختار بين اشراف الكوفة وبين شيعة المختار ، فاشراف الكوفة لم يؤيدوا حركة المختار وكانوا يفضلون النظام السياسي القائم لموافقته لمصالحهم بينما شيعة المختار كانت ترغب في محاربة النظام القائم لتحسين اوضاعها . وقد اجمع الرأي عند اشراف الكوفة على

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٥ ـ ٢٨ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٦٩ .
٢ ـ المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨٠ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٦ ص ٣٣ .
٤ ـ المصدر السابق : ج ٦ ص ٣٣
٥ ـ المصدر السابق : ج ٦ ص ٣٣

قتال المختار[١] ويمكننا ملاحظة الصراع الطبقي في قول عبد الرحمن بن مخنف لأشراف الكوفة : « ومع الرجل ـ اي المختار ـ شجعانكم وفرسانكم من انفسكم ومعه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة وعبيدكم ومواليكم اشد حنقاً عليكم من عدوكم فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم »[٢] .

ولا ننسى ان هدف المختار من القيام بحركته هو السيطرة والسلطان وانه انما حاول استمالة الموالي لدعم حركته في قتال بني امية وابن الزبير وها هو يحاول المساومة على هؤلاء الموالي مع اشراف الكوفة طمعاً في عونهم فهو يخاطب اشراف الكوفة بقوله : « ان انا تركت لكم مواليكم وجعلت فيئكم فيكم ، اتقاتلون مع بني امية وابن الزبير »[٣] .

ولم يكن الاهتمام بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية كافيا لانطلاق المختار بحركته ، بل كان لا بد من شحنها بالعاطفة الدينية وذلك بالانتساب الى احد اهل البيت البارزين . وقد وجد المختار في شخص محمد بن الحنفية خير معين ؛ لما كان لابن الحنفية من مكانة في نفوس الشيعة فهو« ولي الامر ، ومعدن الفضل ، ووصي الوصي والامام المهدي »[٤] لذلك كان اول القائلين بامامة محمد بن علي بن ابي طالب المعروفة باسم الحنفية[٥] وانه مفوض من قبله للقيام بحركته[٦] . وقد بلغ من تشيع اهل الكوفة لآل علي انهم كانوا يؤمنون بكل حديث ما دام قد جاء على السنة الائمة من آل علي »[٧] .

وهكذا فقد استغل المختار النواحي الاقتصادية والاجتماعية والدينية لتركيز

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٦ ص ٤٤ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٦ ص ٤٥
٣ ـ المصدر السابق ج ٦ ص ٤٤ .
٤ ـ المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨٠
٥ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠ والمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠١ .
٦ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٨٠ (يقول المختار : إن المهدي ابن الوصى محمد بن علي بعثني اليكم امينا ووزيرا ومنتخبا واميرا » . والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠ .
٧ ـ فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٨ .

ميول الجماهير وتوجيهها نحو غايته . وكان من نتائج ثورة المختار انه قتل في معركة القصر بالكوفة في رمضان سنة ٦٧ هـ على يد مصعب بن الزبير الذي تتبع الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها[١] . ولكن اهمية حركة المختار تكمن في انها من اهم الحركات الشيعية وذلك لانها كانت السبب في قيام فرقة الكيسانية التي تعتبر من اوائل الفرق الشيعية التي ظهرت على مسرح الاحداث في القرن الاول الهجري . فاول وجوه اقتران الكيسانية بحركة المختار ما شاع في المصادر من ان الكيسانية هم اصحاب المختار الثقفي او اتباعه[٢] ثم التباس مدلول لفظة الكيسانية بمدلول لفظة المختارية « فسموا الكيسانية وهم المختارية »[٣] وتعتبر الكيسانية اول فرقة طورت بالتفصيل فكرة المهدي المنتظر وكانت احد المراكز الاساسية التي تفرعت عنها فرق الغلو .[٤] .

ولكن فرق الشيعة لم تبق على مبادىء ونهج موحد ، بل انقسمت خاصة بعد وفاة محمد بن الحنفية بالمدينة في المحرم سنة احدى وثمانين للهجرة[٥] وبعد وفاة ابنه عبد الله بن محمد الملقب بابي هاشم[٦] دون عقب الى فرق عديدة . فقد وجدت الكيسانية نفسهامنذ العقد الاخير من القرن الاول الهجري امام ولاءات شيعية كثيرة آخذة في الظهور وكان محورها عدد غير قليل من الرجال البارزين في العلم والمكانة القادرين على استقطاب الناس وقيادتهم بطرق مختلفة والذين اخذوا يظهرون في صفوف بني هاشم .

وكان اولهم بعد ابي هاشم مباشرة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الذي اوصى اليه ابي هاشم بالامامة ثم محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المعروف بالباقر واخوه زيد وابراهيم بن محمد ابن علي الملقب بالامام وعبد الله بن

---

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٤ والطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١١٦
٢ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٧ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠
٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٤
٤ - وداد القاضي : الكيسانية في التاريخ والادب ص ١٢٨ .
٥ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٤ .
٦ - المصدر السابق : ص ٢٨

معاوية بن جعفر بن ابي طالب ثم تلاهم بعد فترة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن ابي طالب الملقب بالنفس الذكية واخوه ابراهيم بن عبد الله وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق[١] . . وهكذا فقد انقسم الشيعة جماعات اتخذت كل جماعة الرجل الذي تؤثره اماماً لها فكان من نتائج هذا الامر نشوء الفرق العديدة التي اختلفت في تعيين الائمة وفي المبادىء والتعاليم .

وقد اعتمدت معظم كتب الفرق التدرج التاريخي القائم على مبدأ كيفية سوق الامامة اساساً في تقسيم فرق الشيعة . فابو محمد بن موسى النوبختي اعتمد التدرج التاريخي في كتابه « فرق الشيعة » اساساً في تقسيم فرق الشيعة ، فتتبع نشوء الفرق المتعددة تبعاً لولاءاتها للائمة المختلفين حسب تسلسلهم الزمني . بينما نرى الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » وكذلك عبد القادر البغدادي في كتاب « الفرق بين الفرق » يقسمان الشيعة الى ثلاث فرق : كيسانية وزيدية وامامية[٢] ولكن ابا الحسن الاشعري في كتابه « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » اتخذ من موضوع الامامة نفسها مبدأ في تقسيم فرق الشيعة وموقف تلك الفرق من حق علي بالامامة وموقفها بالتالي ممن تقدموا عليا في الخلافة . لذلك فقد قسم الشيعة ثلاثة اصناف : غاليه وزيديه ورافضة . وقد افرد الصنف الاول من الشيعة وهم الغاليه في بدء حديثه عن الشيعة فذكر « انهم غلوا في علي وقالوا فيه قولا عظياً وهم خمس عشرة فرقة »[٣] فمن الفرق الغالية الكربية وهي احدى الفرق التي تشعبت عن الكيسانية ادعى حمزة بن عمارة البربري النبوة وان محمد بن الحنفية هو الله عز وجل[٤] كذلك فبيان النهدي ادعى بان ابا هاشم نبأه هو وان دليل ذلك في القرآن في قوله عز وجل « هذا بيان لله وهدى » وقد ادعى بيان بعد وفاة ابي هاشم النبوة لنفسه[٥] واما اصحاب عبد الله بن معاوية « فقد غلوا فيه وقالوا ان الله عز وجل

---

١ ـ النوبختي : فرق الشيعة : ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٥٢ ـ ٤٢ ـ ٢٩ ـ ٥٣ ـ ٥٤ .
٢ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٥ (وفي موضع اخر (ص ٢٣٥) يعدها خمس فرق مضيفا عليها العلاة والاسماعيلية) .
٣ ـ الاشعري : مقالات الاسملايين ج ١ ص ٦٦ .
٤ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٥ .
٥ ـ المصدر السابق : ص ٣٠ والاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٦ .

نور وهو في عبد الله بن معاوية »[1] .

« وكان بدء الغلو في القول في فرق الخرمدينية » فقد قالوا ان الائمة آلهة وانهم انبياء وانهم رسل وانهم ملائكة وتكلموا بالاظلة وفي التناسخ في الارواح . . . »[2]

وهكذا فقد دخلت الكثير من الآراء الغالية في الفرق المتعددة التي تفرعت عن الشيعة الاوائل حتى افرط بعض الغلاة فيما وضعوه من آراء ونظريات تدور على اصول التشيع وترجع هذه الآراء الى اسباب وظروف فرضتها الاحداث ذلك « ان الغلاة وجدوا في ظروف خاصة وان كثيراً منهم اتخذوا حب آل البيت ستاراً يخفون وراءه كل ما شاءت اهواءهم »[3] كذلك رغبة منهم في تمكين مكانتهم لدى اصحابهم .

اما الفرقة الثانية من فرق الشيعة فهي الزيدية وترجع نشأتها الى زمن هشام بن عبد الملك بن مروان حين ثار زيد بن علي بن الحسن ضد الامويين وكان شعاره عندما بايعه اهل الكوفة « التمسك بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين اهله بالسواء ، ورد الظالمين ، واقفال المجمر ونصرنا اهل البيت على من نصب لنا لنا وجهل حقنا »[4] فالملاحظ في هذا الشعار التركيز من جانب زيد بن علي على العوامل الاجتماعية والمادية الى جانب العوامل الدينية وجعلها اساساً لثورته ضد الامويين . فقد اتخذ من الدفاع عن المستضعفين والمحرومين هدفاً رئيسياً من اهداف حركته وذلك ضد الظالمين من بني امية . وهنا يمكننا ملاحظة القاسم المشترك بين شعار حركته وشعار حركة المختار واهمية العوامل الاجتماعية والاقتصادية في كلتا الحركتين . وقد كان لحركة زيد بن علي وثورته على الامويين هدفاً سياسياً الى جانب مطالبته بالحق وهذا ما يذكره هشام بن عبد الملك لزيد بن علي « بأنه كان يرغب في

---

١ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٣٢
٢ ـ المصدر السابق ص ٣٥ والاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٧ (وقد دعى هذه الفرقة بالجناحية) .
٣ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٧٦ .
٤ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٢

الخلافة ويتمناها »[1] وقد كانت الشيعة بدورها تطالب زيداً بالخروج للثأر من بني امية[2] ولكن زيداً لم يستطع ان يجمع حول الشيعة كلها لانه كان معتدلاً في تشيعه اعتدالاً لايرضي الغلاةفقد« كان زيد بن علي يفضل عليا بن ابي طالب على سائر اصحاب رسول الله (ﷺ) ويتولى ابا بكر وعمر ويرى الخروج على ائمة الجور »[3] . وكان لزيد بعض الآراء على مذهب الاعتزال فكان يقول « بجواز امامة المفضول مع قيام الافضل »[4] وهذا ما لا يرضى عنه الكثير من غلاة الشيعة . وهكذا فقد فشلت الحركة التي قام بها زيد بن علي وانتهى امره بان صلبه يوسف بن عمر الثقفي ثم احرقه سنة ١٢٢ هـ [5] .

ومع ان هذه الثورة قد انتهت الى نهاية مأساوية ، فانها كانت ثورة لها شأنها . فقد كانت السبب في قيام فرقة الزيدية[6] احدى اكبر الفرق الشيعية . كذلك فان ثورات شيعية اخرى اعقبتها وامام هذه الثورات سقطت دولة بني امية .

فمن اشهر الثورات بعد حركة زيد بن علي كانت ثورة ابنه يحي بن زيد بن علي على الامويين والتي انتهت بقتله وحمل رأسه الى الوليد[7] كذلك تلتها ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب بالكوفة سنة ١٢٧ هـ وقد حاربه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ابن مروان وهزمه فلجأ الى الجبال[8] .

اما الفرقة الثالثة من فرق الشيعة فهي الرافضة او الامامية وهو الصنف الذي يجمعها رفضهم امامة ابي بكر وعمر والقول بنص النبي (ﷺ) على استخلاف علي

---

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٧ ص ١٦٥ .
٢ ـ المصدر السابق : ج ٧ ص ١٦٦
٣ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٣٧
٤ ـ الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢٥٠ (فقد تتلمذ زيد بن علي على يد واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة) .
٥ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٢ .
٦ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ١٨٣ (سميت الزيدية بهذا الاسم وان ذلك بخروجهم مع زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب) .
٧ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ١٨٥
٨ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

باسمه[١] وقد افترقت الامامية اربع وعشرون فرقة كما عدها الاشعري[٢] بينما هي عند البغدادي خمس عشرة فرقة[٣] واهم فرقهم « الاثنا عشرية الذين ساقوا الامامة من جعفر الصادق الى ابنه موسى وقطعوا بموت موسى وزعموا ان الامام المنتظر هو الثاني عشر من نسبه الى علي بن ابي طالب[٤] .

ولكن مهما تنوعت هذه الفرق واختلفت في التفاصيل فهناك نقطة التقاء مشتركة تجمع بينها وهي قضية الامامة التي يدور حولها كلام الشيعة على اختلاف فرقهم واليها ترجع اكثر المسائل الفرعية فهم مجمعون على « ان الامامة ليست محضية مصلحية تناط باختيار العامة وبتنصيب الامام بنصبهم ، بل هي قضية اصولية وهي ركن الدين لايجوز للرسول عليه السلام اغفاله واهماله ولاتفويضه الى العامة وارساله[٥] وعلى هذا ظل الشيعة في نضال مستمر ضد الدولة الاموية ثم الدولة العباسية وقد قتل الكثير من ائمتهم على يد الدولة الحاكمة[٦] .

١ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٨٩ والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٥
٢ - المصدر السابق : ج ١ ص ٨٨
٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣٨
٤ - المصدر السابق : ص ٤٧ .
٥ - الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢٣٥ وابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٨ مع تغيير في اللفظ .
٦ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ من ص ١٥٠ - ١٦٦ (ذكر من خرج من اهل البيت) .

الخوارج

يقول بعض مؤرخي الفرق : « ان كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى « خارجياً » سواء كان الخروج في ايام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو على كان بعدهم على التابعين، أو على الأئمة في كل زمان[1]» وعلى هذا التعريف يكون تسميتهم بالخوارج لقب ذم لهم ويكون سبب تسميتهم بهذا الاسم من قبل مخالفيهم وذلك «لخروجهم على علي بن أبي طالب»[2] أي عن الجماعة وقد تكون تسميتهم بالخوارج مأخوذة من قوله تعالى «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله»[3] وعلى هذا تكون تلك التسمية لقب مدح لازم وتكون منهم لا من مخالفيهم.

وكما عرف الخوارج بهذا اللقب عرفوا باسم (الحرورية) و(الشراة) و المارقة) و(المحكمة) . اما انهم لقبوا (بالحرورية) فلانهم بعد ان رجع علي بن ابي طالب من صفين الى الكوفة انحازوا الى حروراء[4] . واما انهم لقبوا بالشراة « فلأنهم كانوا يقولون اشرينا انفسنا في طاعة الله اي بعناها بالجنة »[5] ويظهر انهم اخذوا هذا المعنى من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة

---

١ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ .
٢ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٧
٣ ـ القرآن الكريم : سورة النساء آية ١٠٠ .
٤ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٧ والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٧ .
٥ ـ المصدر السابق : ج ١ ص ٢٠٧

اللہ »[١] واما تسميتهم (بالمارقة) بمعنى انهم مارقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فانهم لا يرضونها[٢] .

واما المحكمة فانهم لقبوا بها لانهم كانوا يقولون : « لا حكم الا لله »[٣] . وقد انفرد بهذه التسمية اوائلهم الذين انكروا على علي التحكيم . ولكن لفظة الخوارج هي الاشهر « والخوارج كلمة عربية مفردها خارجي ، هم اتباع اقدم الفرق الاسلامية »[٤] . ففرقة الخوارج جاءت نتيجة انشقاق ديني حدث في الجماعة الاسلامية اثر موقعة صفين . ذلك ان جماعة من المسلمين من اصحاب علي احتجوا على فكرة وقف القتال في صفين وانكروا على علي موافقته على التحكيم بعد ان رأوا انه لم يوقف القتال بين المسلمين وانكر بعضهم على لجنة التحكيم صلاحيتها في النظر في خلاف علي ومعاوية « وقالوا لا حكم الا لله »[٥] . فالخوارج الذين خرجوا على علي وانشقوا عليه كانوا بالامس من حزبه واعوانه وكانوا يعتقدون ان عليا إمام بويع بيعة صحيحة ، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه ، بل كان عليه ان يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس . وهم يعبرون عن موقفهم من التحكيم ونقمتهم على امير المؤمنين علي بن ابي طالب بقولهم لعبد الله بن عباس « قد حكمتم في امر الله الرجال ، وقد امضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه ان يُقتلوا او يرجعوا ، وقبل ذلك ما دعوناهم الى كتاب الله عز وجل فابوه ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا ، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة ، وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين واهل الحرب منذ نزلت براءة ، الا من اقر بالجزية »[٦] وقالوا ايضاً « قد كان للمؤمنين امير فلما حكم في دين الله خرج عن الايمان ، فليتب بعد اقراره بالكفر »[٧] .

---

١ - القرآن الكريم : سورة البقرة اية ٢٧ .
٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٧ والشهرستاني · الملل والنحل ج ١ ص ١٧٣ .
٣ - المصدر السابق : ج ١ ص ٢٠٧ .
٤ - دائرة المعارف الاسلامية ج ٨ ص ٤٦٩ ماده خوارج .
٥ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٥ والشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ١٧٢
٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٦٥ .
٧ - المبرد : الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١٠٦ .

وقد يعجب المرء ان يأخذ الخوارج على علي هذا الموقف من التحكيم ، لانهم هم الذين دفعوه الى اتخاذه ، ثم طالبوه بعد ذلك بالعودة عن الامر[١] ، وهو لم يكن ليفعله وهو الحاكم فيتنكر لما سبق ان وافق عليه . فهم يخاطبون عليا بقولهم : « تب عن خطيئتك ، وارجع عن قضيتك واخرج بنا الى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. قال علي : قد اردتكم على ذلك فعصيتموني ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا وشرطنا شروطاً واعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا »[٢] .

هذا امر الخوارج قبل معرفتهم نهاية التحكيم ، اما بعد التحكيم ورجوع علي من صفين فانهم تجمعوا في اثني عشر الفاً تحت زعامة عبد الله بن الكواء اليشكري وشبث بن ربعي التميمي فلم يدخلوا معه الكوفة بل اتوا حروراء[٣] . ثم ان الخوارج ذهبوا الى النهروان بعد ان بايعوا « عبد الله بن وهب الراسبي » بالامامة . ولكن كثيراً منهم فارقوه عندما قرب الامر في محاربة علي[٤]. ثم كانت معركة بينهم وبين علي سنة ٣٨ هـ فقُتل الكثير من الخوارج ولم يبق منهم الا تسعة رجال ذهب رجلان منهم الى عمان ومن اتباعهما خوارج عمان وذهب اثنان الى اليمن ومن اتباعهما اباضية اليمن واثنان الى سجستان ومن اتباعهما خوارج سجستان واثنان الى الجزيرة ومن اتباعهما خوارج الجزيرة وخرج رجل منهم الى « تل موزن »[٥] .

وهكذا فالمصادر التاريخية تعتبر ان الباعث الاول لنشأة الخوارج كانت موافقة علي على التحكيم وذلك لانهم رأوا ان الفصل في موضوع الخلافة لا يصح ان يوكل الى البشر بل ينبغي الاحتكام فيه الى الحرب والكفاح ولكن هذا السبب المباشر لنشأة الخوارج يعد من اوهى الاسباب ، ذلك ان نزعة الخروج كانت كامنة في نفوس المسلمين بسبب ما آل اليه امر الخلافة على عهد عثمان ، وما انتهى اليه امر الجماعة الاسلامية بعد مقتله من تفرق الامة الى فريقين متعارضين متحاربين ، لا لسبب من

١ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٢ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٦٩ .
٣ ـ المصدر السابق : ج ٥ ص ٦٣ .
٤ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٠ والمبرد : الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١١٧ .
٥ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٧ .

اسباب الدين بل لاسباب الدنيا اي الحكم ومغانمه والتطلع الى مراكز الرياسة والسيطرة ، مما كان في الواقع خيانة لجوهر الاسلام بوصفه دنيا وعقيدة[1] وهكذا آثرت فئة من المسلمين الثورة على الاوضاع السائدة . وهكذا كان لثورة الخوارج على علي بالاضافة الى الاسباب الدينية اسبابا سياسية . فهم وان كانوا قد اثاروا المسألة من ناحية دينية اي انهم خطأوا عليا لقبوله بالتحكيم بينه وبين معاويه بن ابي سفيان وجعلوا هذا الخطأ كفراً[2] وصبغوا الامر صبغة دينية تتراوح بين الكفر والايمان ولكن هناك صلة وثيقة بين العوامل السياسية التي خلقت هذه الفرقة وبين افكارها وما بشرت بها من تعاليم . فالخوارج هي من اقدم الفرق والمذاهب التي ادمجت فيه الافكار الدينية في الخلافات السياسية .

ففي نظرية الخلافة او الامامة عند الخوارج او « الجمهوريون » كما يسميهم فان فلوتن[3] نرى انهم اجازوا ان يكون الخليفة من غير القرشيين ما دام يحقق العدل بين الناس ويجتنب الجور ، واذا وجد امام حقق مصالح الناس بالعدل وخرج عليه واحد وجب قتاله . واذا غير الامام سيرته وعدل عن الحق وجب عزله او قتله ، وانه يجوز ان لا يكون في العالم امام اذا امكن ان يسير الناس امورهم بالعدل وعدم الجور ، ولا مانع اذا حقق الامام العدل بين الناس ان يكون عبداً او حراً ، قرشيا او غير قرشي[4] .

فالملاحظ ان الخوارج ارادت من تفسيرها للدين المحافظة على منزلتها محافظة تامة اذ ان الخوارج لم يكونوا من قريش ولا ثقيف ولا الانصار بل كانوا من قبائل اقل اهمية من حيث المكانة السياسية اندمجت في الاسلام خصوصاً بعد فتوح عمر واقامت في الكوفة والبصرة وكانت تغلب على اكثرهم البداوة . فكثرة قبائل الخوارج من « اعاريب بكر وتميم »[5] .

---

١ ـ فلهاوزن : احزاب المعارضة السياسية الدينية ص ٢٩ .
٢ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٦٧ .
٣ ـ فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٠ .
٤ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
٥ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٦٦ .

وعلى هذا فان الخوارج جسدت في ارائها حول الخلافة الثورة على الارستقراطية المتمثلة في قريش عامة لحصرها مركز الخلافة بنفسها دون سائر القبائل وعلى الاموين خاصة « فالخوارج جسدت في فكرها الرفض السياسي لتجميع السلطة في ايدي الامويين »[١] لذلك فتاريخ الخوارج كان عبارة عن ثورات متعددة ضد بني امية التي تتركز فيها عصبية قريش .

كذلك فثورة الخوارج على علي كانت لها بالاضافة الى العوامل الدينية والسياسية اسبابا اقتصادية واجتماعية . « ذلك ان الخوارج وهم من المقاتلين رفضوا مركزية الحكم وارادوا الاستئثار بالاراضي التي فتحوها والاستفادة منها ، كما ارادوا ان يحافظوا على منزلتهم كطبقة من المقاتلين تستثنى من بين افرادها جميع الطبقات الاخرى . . لذلك شجبت الاختلاط مع سائر فئات الامة الاخرى حتى يتسنى لها الحفاظ على مكاسبها الاقتصادية التي تنجم عن الغزو المستمر »[٢] .

وقد دخلت في تكوين الخوارج عدة عوامل منها « دخول بعض الموالي في عقيدة الخوارج ولعل السبب في دخولهم انهم اشتركوا مع الخوارج في بغض الامويين واعتقادهم بعدم صلاحيتهم ووجوب الخروج عليهم حتى تزول دولتهم[٣] . وقد رغب الموالي في مذهب الخوارج القائم على المساواة بين المسلمين الذي تمثله الآية الكريمة « انما المؤمنون اخوة » ، فبينما كانت كل قبيلة تفتخر بشرف اصلها وتجعله عنوانا للقوة كانت الخوارج تقول :

دعى القوم ينصر مدعيه   ليلحقه بذي الحسب الصميم
ابى الاسلام لا اب لي سواه   اذا افتخروا بقيس او تميم[٤]

فدعوة الخوارج الى المساواة والاخوة جعلت الموالي يجدون في مذهبهم تحقيقاً

---

١ ـ طريف خالدي . دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٤ .
٢ ـ المصدر السابق ص ٢٥ ـ ٢٧ .
٣ ـ احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٣٢ .
٤ ـ المبرد : الكامل في الادب واللغة ج ٢ ص ١١٦ والشعر لنهار بن موسى ىشكرى .

لاماهم وطموحاتهم . وترجع دعوة الخوارج للمساواة والاخوة الى انهم كانوا من بين جماعة العمال اكثر مما هم من بين طائفة الموسرين[1] .

وهكذا تضافرت العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في تكوين الخوارج .

وقد بدأ الخوارج نضالهم ضد نظام الحكم عقب صفين وخرجوا على علي في النهروان وفي اماكن متعددة[2] . وكانت نتائج ثوراتهم تنتهي دائماً بالهزيمة مما زاد في امعان الخوارج على كره علي حتى دبروا له مكيدة قتله فكان « ان قتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي وقد كان زوجاً لامرأة قتل كثير من افراد اسرتها في وقعة النهروان »[3] .

وقد ظل الخوارج شوكة في جانب الدولة الاموية طوال حكم خلفاء معاوية والى مروان بن الحكم يرجع الفضل في القضاء عليهم[4] .

ولم تبق الخوارج فرقه واحدة وعلى رأي واحد بل سرعان ما انقسموا الى فرق كثيرة لم يتفق المؤرخون على عددهم ولكن اتفقوا جميعاً على انهم لا يقلون عن عشرين فرقة بعضهم اصول وبعضهم فروع . اما الاصول فهم على ما ذهب اليه الشهرستاني[5] « المحكمة الاولى ، الازارقة ـ النجدات ، الصفريه ، العجاردة والثعالبه والباقون فروعهم . اما عند الاشعري فهم الازارقة والنجدية ، والاباضية ، والصفرية[6] .

---

١ ـ دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ص ٩٤ .
٢ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٢ والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٦١ .
٣ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٩٥ .
٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثامن ص ٤٧١ وما بعدها (حروب الخوارج في العصر الاموي) .
٥ ـ الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٧٢ .
٦ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ١٨٣ .
وقد عدها البغدادي عشرون فرقة (الفرق بين الفرق ص ٥٤) وهي اربعة أضرب عند ابن عبد ربه (العقد الفريد مجلد ٢ ص ٣٩١) (الازارقه ـ البيهسيه ، الاباضية ، الصفرية) .

وقد تفرعت اصول فرق الخوارج الى فروع كثيرة تبلغ الثلاثين واكثر عند الاشعري[1] . والحق انه لا يمكن معرفة عدد فرق الخوارج ولا ضبطها لان الخلافات كانت توجد بينهم على اقل شيء[2] ومن هنا كانت لفظة الخوارج تصح ان تكون وصفاً لكل فرقهم بل تشبه ان تكون دستوراً لهم وهو ما يظهره انقسامهم الى فرق متعددة .

ولكن يجمع الخوارج على اختلاف فرقهم وافتراق مذاهبهم « اكفار علي وعثمان والحكمين واصحاب الجمل وكل من رضي بتحكيم الحكمين والاكفار بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الامام الجائر »[3] .

ولكن فرقهم وتحديداً اصول الفرق تختلف في اراء وعقائد كثيرة .

فالازارقه وهم من اوائل فرق الخوارج « اتباع نافع بن الازرق الحنفي المكنى بابي راشد فلم تكن للخوارج فرقه اكثر عدداً ولا اشد فهم شوكة »[4] وهم يقولون « ان عليا عليه السلام كافر »[5] .

ومن ارائهم اباحة قتل الاطفال المخالفين ، وان اطفال المشركين في النار مع ابائهم ومنها ان التقيه لا تجوز مطلقاً لا بالقول ولا بالعمل . ومنها تكفيرهم من ارتكب كبيرة من الكبائر ويكون مخلداً في النار مع الكفار[6] .

---

١ ـ الفروع بناء على ما ذهب اليه ابو الحسن الاشعري فهم : العطوية ، الفديكية ، والعجاردة ومنها : « الميمونية ـ الخلفية ـ الحمرية ـ الشعيبية ـ الحازميه ـ المعلوميه ـ المجهوليه ـ الصلتية ـ الثعالبه ـ الاخنسية ـ المعبد ـ الشيبانية ـ الرشيديه ـ المكرمية » ومن الاباضية : « الحفصية ، اليزيديه ، الحارثية ، الواقفية ، الضحاكية) ومن البيهسية (العوفية واتباع شبيب النجراني واصحاب التفسير) كذلك اصحاب صالح ، الحسينية ، الراجعة والشبيبة) .

٢ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٩٠ (خبر « عبد الجبار » الذي خطب الى ثعلبة ابنته ثم شك في بلوغها ، فسأل امها عن ذلك ، حتى وقع الخلاف بين ثعلبة وعبد الكريم بن عجرد في الاطفال ، فاختلفا بعد ان كانا متفقين) .

٣ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق ص٥٥ والشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٧٢ .

٤ ـ المصدر السابق ص ٦٢ .

٥ ـ الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٨٣ .

٦ ـ المصدر السابق: الملك والنحل ج ١ ص ١٨٦ ـ ١٧٠ .

ان من ينظر في اراء تلك الطائفة من الخوارج يرى أنهم لم يكونوا يعرفون الأمر الوسط بين الايمان والكفر ولكن الانسان أما كافر وأما مؤمن وان الايمان قول وعمل وأنه أمر كلي لا يتجزأ ، فمن حقق الايمان بجميع أقواله وأفعاله فهو مؤمن والأ فهو كافر وإن مبدأ من اخطأ من المسلمين فقد كفر كان سبباً مهماً في نشأة الفرق الكلامية ذلك أن أصل نشأة المعتزلة يرجع الى الحكم على مرتكب الكبيرة هل هو كافر أم مؤمن ؟ حتى افتى واصل بن عطاء في هذا بانه في منزلة بين المنزلتين (أي آنه لا كافر مطلقاً ولا مؤمن مطلقاً) وانما هو فاسق . كذلك فقد نشأت عن مبدأ الكفر والإيمان الفرقة التي ترى أن مرتكب الكبيرة يرجىء امره الى الله وهي فرقه المرجئة . فهذا القول بكفر من أخطأ من المسلمين وهو رأي الخوارج الاوائل يمكن ان يكون السبب في نشأة الفرق الكلامية الاسلامية .

وقد تطورت آراء الفرق التي نفرعت عن الخوارج الأوائل حتى اننا نرى ان متأخري الخوارج كانوا أكثر تساهلاً مع مخالفيهم من متقدميهم ولا ندري هل سبب هذا التساهل والتسامح هو اتساع مداركهم عن سلفهم الذين كانوا من عرب البادية وفيهم السذاجة وعدم عمق التفكير ، ام ان كثرة الحروب التي انهكهم قد جعلتهم يأثرون التقرب من مخاليفهم عن طريق التخفيف من ارائهم المتشددة .

وان ما نلاحظه من أراء الصفرية وهي من فرقهم المتقدمة ما يؤكد هذا الرأي فهم اكثر تسامحاً من غيرهم « فالصفرية أصحاب زياد بن الاصفر خالفوا الازارقه والنجدات والاباضية في امور منها انهم لم يكفروا القعدة عن القتال ، ولم يسقطو الرجم ، ولم يحكموا بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم وقالوا ان التقيه جائزة في القول دون العمل »[1] .

وبعد استعراضنا المجمل لتاريخ الخوارج وفرقهم وآرائهم يمكننا ان نحكم على تلك الفرقة من المسلمين والتي تفرعت إلى فرق كثيرة ان ادراكها للتعاليم الدينية كان إدراكاً سطحياً وإنهم كانوا يخلصون لهذه التعاليم على حسب فهمهم لها وان

---

١ ـ الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢١٧ .

اخلاصهم لعقائدهم الدينية ، جعلهم ينكرون على كل من يخالف امراً من امور الدين بحسب فهم وادراكهم وفضلاً عن ان هذه الفئة « ارادت من تفسيرها للدين المحافظة على منزلتها محافظة تامة . . وفي سبيل ذلك اباحت ما حرمته الفئات الاسلامية الاخرى وفسرت الدين لا عقلانيا »[٢] .

٢ ـ طريف الخالدي : دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٧ .

المرجئة

كان للاوضاع السياسية التي سادت الدولة الاسلامية في صدر الاسلام وبداية الحكم الاموي الاثر الكبير في نشأة الخوارج والشيعة اللذين كانا في اول امرهما حزبين سياسيين تكونا حول موضوع الخلافة . كذلك فقد ادت تلك الاوضاع الى قيام حزب سياسي محايد هو « المرجئة » . ويظهر ان هذه الفئة لم تتكون كمذهب الا بعد التحكيم وحتى ذلك الحين ظلت عبارة عن نزعة غير واضحة المنهج والتفكير . فنشأة المرجئة كما يؤرخ لها ترجع الى انه « لما قتل علي عليه السلام ، التقت الفرقة التي كانت معه ، والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير ، فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن ابي سفيان ، الا القليل فهم من شيعته ومن قال بامامته بعد النبي صلى الله عليه وآله وهم السواد الاعظم واهل الحشو واتباع الملوك واعوان كل من غلب اعني الذين التقوا مع معاوية فسموا جميعاً « المرجئة »[1] .

فقد نشأت هذه الفئة من المسلمين على اثر استفحال الانشقاق في صفوف المسلمين . فقد قام الخوارج وراحوا يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم ، كذلك كان من الشيعة من كفرا بابكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم وكلاهما يكفر الامويين ، ثم جاء الزبيريون وراحت كل فئة تكفر الاخرى وتدعي انها على حق ، فاصيب نفر من المسلمين بخيبة امل أليمة ، وكانما صارت افكارهم في الموقف الذي ينبغي اتخاذه على الصعيد السياسي ففضلوا الحياد ، ورأوا في الاحزاب المتطاحنة ابناء امة واحدة هي أمة الاسلام لذلك فقد أثرت هذه الفئة موقفاً وسطاً وارجأت الحكم

---

١ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ .

على الفرقاء المتخاصمين الى الله فقد « توالوا المختلفين جميعاً وزعموا ان اهل القبلة كلهم مؤمنون باقرارهم الظاهر بالإيمان ورجوا لهم جميعاً المغفرة »[1] .

وهكذا كان موقف المرجئة من الناحية السياسية موقفاً حيادياً متسامحاً .

وقد تكون فكرة الارجاء قد نشأت مبكرة في عصر الصحابة . ففي حديث عن الرسول (ﷺ) يصور فكرة الحياد في ايام الفتن فيقول : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد ملجأ او معاذاً فليعذبه »[2] ومن الطبيعي ان يؤدي هذا النوع من التفكير الى تسامح كبير في الحقل العقائدي اجمالاً . فهذه النزعة الى عدم الدخول في الحروب التي بين المسلمين هي الاساس التي بني عليه مذهب الارجاء .

اما لفظة « مرجئة » فهناك خلاف حول اشتقاقها من حيث المعنى ان لم يكن من حيث اللفظ . ومن المتفق عليه اجمالاً ان « المرجئة » من ارجأ ومعناها أخَّر الامر واجل البت فيه فيكونون قد دعوا كذلك لانهم فضلوا عدم اتخاذ مؤقف صريح ازاء المذاهب المتضاربة فأرجأ الى العالم الآخر قضية الحكم في الخلافات[3] فهم من هذا القبيل يلتقون والخوارج (لا حكم الا الله) وقد تعني « ارجأ » بعث الرجاء[4] . والمسلمون آنذاك بحاجة الى مثل هذا البعث .

كذلك فبعض المستشرقين يرون في نشأة المرجئة « ان فريقا كبيراً من المسلمين الورعين قد اكتفى بالاستسلام السلبي وحل القضايا الراهنة حلاً اكثر ملاءمة

---

١ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ .

٢ ـ صحيح البخاري ج ٩ ص ٦٤ .

٣ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٣ (الارجاء هو التأخير اي تأخير صاحب الكبيرة الى القيامة ، فلا يقضي عليه بحكم ما في الدنيا مع كونه من اهل الجنة او من اهل النار) (وقيل الارجاء تأخير علي عليه السلام من الدرجة الاولى الى الدرجة الرابعة) .

٤ ـ المصدر السابق : ج ١ ص ٢٢٣ (كان المرجئة يقولون : لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة) .

لضرورات الواقع . وهذا الفريق كان يسند النظرية « ان كل شيء متوقف على الايمان » فاذا كان الايمان قائماً لم يضر العمل واذا كان المرء غير مؤمن لم ينفعه العمل »[١] .

ونتيجة للصلة الوثيقة بين نشأة « المرجئة » والعوامل السياسية التي ادت الى قيامها كان اهم ما بحث فيه المرجئة من اراء وتعاليم تحديد « الايمان » و « الكفر » و « المؤمن » و« الكافر » فكثير من المرجئة كانوا يرون ان الايمان هو المعرفة بالله والخضوع له والاقرار والمعرفة برسله والمحبه له بالقلب والاقرار به[٢] وقد اخروا العمل عن الايمان[٣] وهم بذلك يخالفون الخوارج الذين جعلوا الاعمال جزءاً من الايمان والمرجئة تخالف الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة « فقد جعلوا مرتكبي الكبائر من اهل الصلاة العارفين بالله وبرسله المقرين به وبرسله مؤمنين بما معهم من الايمان فاسقين بما معهم من الفسق »[٤] بينما رأت الخوارج مرتكب الكبيرة كافراً . وقد غلا بعض المرجئة في تحديد الايمان « فجعلوا الايمان يكون بالقلب دون غيره من الجوارح »[٥] .

كذلك فقد رد المرجئة على غلاة الشيعة الذين عدوا الاعتقاد بالامامة ركنا اساسيا من اركان الدين بينما قالت المرجئة « ان الامامة يستحقها كل من قام بها اذا كان عالماً بالكتاب والسنة وانه لا يثبت الامامة الأ باجماع الامة كلها »[٦] .

ومن التعاليم التي نادت بها اكثر المرجئة « عدم تكفير احد من المتأولين وهم لا يكفرون الأ من اجمعت الامة على اكفاره »[٧] .

---

١ ـ جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٧٥ .
٢ ـ الاشعري : مقالات الاسلامية ج ١ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ـ ٢١٧ .
٣ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩٠ .
٤ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٩ .
٥ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢١٤ (وهو رأي فرقة الجهمية) .
٦ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٩ .
٧ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ١٧١ .

فجملة هذه الاراء تتفق ورأي المرجئة السياسي ، فهم لا يحكمون على الامويين ولا على الخوارج والشيعة بالكفر بل انهم يتركون امرهم جميعاً الى الله .

ولم تبق المرجئة على رأي واحد بل اختلفوا في تحديد « الايمان » فرقاً متعددة تفاوت عددها عند مؤرخي الفرق . فالشهرستاني قسم المرجئة « اربعة فرق هي : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة »[١] .

والنوبختي يعدها اربع فرق فيدعوها « الجهمية ، الغيلانية ، الماصرية ، والحشوية »[٢] وهي من الفرق التي عدها الاشعري والتي بلغت عنده اثنتي عشرة فرقة[٣] .

اما البغدادي « فيعدها ثلاثة اصناف : صنف منهم قالوا بالارجاء في الايمان وما يقدر على مذاهب القدرية والمعتزلة . . . وصنف منهم قالوا بالارجاء بالايمان وبالخبر في الاعمال على مذهب جهم بن صفوان فهم من جملة الجهمية والصنف الثالث خارجون عن الخبر والقدرية »[٤] .

« وقد لعبت المرجئة دوراً هاماً في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الاحزاب والطوائف وحلت مشكلة اجتماعية جديدة في الدولة الاموية وهي موقف العرب من المسلمين الجدد فقد ذهب المرجئة الى القول بانه لا يحل للحكومة ان تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد ان اصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم »[٥] .

وهكذا فنتيجة لهذه الاراء والافكار التي قالت بها المرجئه لم نر الامويون

---

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٣ .

٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ - ٧ (فالجهمية مرجئة اهل خراسان ، والغيلانية مرجئة اهل الشام والماصرية مرجئة اهل العراق) .

٣ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٤ .

٤ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

٥ - فان فلوتن : السيادة العربية الشيعة والاسرائيليات ص ٦٥ .

اضطهدوامرجئاً لارجائه كما كانوا يضطهدون المعتزلة لاعتزالهم والخوارج لخارجيتهم والشيعة لتشيعهم بل نراهم كانوا يستعملون من عرف بالارجاء في اعمالهم كما فعل يزيد بن المهلب بن ابي صفره بثابت قطنه وهو شاعر المرجئة فقد ولاه اعمالاً من اعمال الثغور[1] .

فقد وجد الامويون في تعاليم المرجئة ما يساعدهم على فرض سلطانهم على المسلمين لان الحساب مرجأ الى الآخرة ، ولا داعي الى فتحه منذ هذا العالم وهذا يعني ان من الافضل التسليم بواقع الخلافة كما فرضه الأمويون بغض النظر عن شرعيته او عدمها ، على ان يترك لله امر الثواب والعقاب .

---

١ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني مجلد ١٣ ص ٩٠ (وله قصيدة تبرز اهم تعاليم المرجئة ص ٩٥) .

المعتزلة

تشير المصادر التاريخية القديمة وكتب الفرق الاسلامية الى « ان المعتزلة هم اصحاب واصل بن عطاء الغزال ، لما اعتزل مجلس الحسن البصري يقرران مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ويثبت المنزلة بين المنزلتين ، فطرده ، فاعتزله وتبعه جماعة سموا ابا المعتزلة »[1] .

ولكن هل كان هذا اول استعمال لهذه الكلمة واول اطلاق لها ؟ وهل كان واصل واصحابه اول فرقة تسمت بها ؟ ام ان هذه الكلمة كانت تطلق قبل هذا على غير واصل واصحابه ؟

تشير بعض المراجع التاريخية القديمة الى ان هذه التسمية كان لها معناها الخاص في لغة السياسيين في القرن الاول والنصف الاول من القرن الثاني ، فكان يستعمل للدلالة على الامتناع عن مناصرة احد الفريقين المتنازعين وعلى الوقوف موقف الحياد من القتال بين اصحاب الجمل واصحاب صفين .

فالنوبختي يذكر « ان فرقة من المسلمين اعتزلت مع سعد بن مالك وهو سعد ابن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن سلمة الانصاري ، واسامة بن زيد ابن حارثة الكلبي مولى رسول الله (ﷺ) فان هؤلاء اعتزلوا عن علي عليه السلام وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم في بيعته والرضا به ،

---

١ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٥٧ .

فسموا المعتزلة وصاروا اسلاف المعتزلة الى آخر الابد وقالوا : لا يحل قتال علي ولا القتال معه »[1] .

وفي تاريخ الطبري ما يشير الى ان هذه التسمية « المعتزلة » كانت تطلق على الجماعة التي اعتزلت الفريقين المتحاربين من المسلمين فهو يقول عند ذكره لحوادث السنة السادسة والثلاثين من الهجرة : « ان قيس بن سعد كتب الى علي يقول : ان فرقة وقفت واعتزلت الى خربتها وقالوا : إنْ قَتَل قتلة عثمان فنحن معكم ، والاّ فنحن على جريمتنا حتى نحرك أو تصيب حاجتنا »[2] .

كذلك فالمغيرة يقول لمحمد وطلحة وسعيد بن سعد : « الرأي والله الاعتزال »[3] .

وفي تاريخ الطبري ايضاً « واهل البصرة فرق : فرقة مع طلحة والزبير ، وفرقة مع علي ، وقد لا ترى القتال مع احد من الفريقين . وجاءت عائشة رضي الله عنها من منزلها التي كانت فيه حتى نزلت في مسجد الحُدّان في الازد ، وكان القتال في ساحتهم . ورأس الازد يومئذ صبرة بن شيحان فقال له كعب بن سوران الجموع اذا تراءوا لم تستطع وانما هي بحور تدفق فاطعني ولا تشهدهم واعتزل بقومك فاني اخاف الاّ يكون صلح . . . ودع هذين الغارين من مضر وربيعة فهما اخوان »[4] .

وفي تاريخ الطبري ايضاً وفي سنة ٣٦ هـ كتب قيس بن سعد الى علي يقول : « ان قبلي رجالا معتزلين قد سألوني ان اكف عنهم وان ادعهم على حالهم حتى يستقيم امر الناس »[5] . وقد وردت لفظة المعتزلة « يسمى المحايدون الذين لا يبغون نصر فريق على آخر باسم القوم المعتزلين »[6] .

---

١ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ٥ .
٢ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٤٢ .
٣ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥٢ .
٤ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥٠٣ .
٥ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥٥٤ .
٦ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥٥٧ .

وكذلك حينما اجتمع المحكمون للفصل بين علي ومعاوية قال المغيرة بن شعبة (احد المعتزلة) لعمرو بن العاص : « يا ابا عبد الله ، اخبرني عما اسألك عنه . كيف ترانا معشر المعتزلة ؟ فاننا شككنا في الامر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا ان نستأني ونتثبت حتى تجتمع الامة ؟ قال اراكم معشر المعتزلة خلف الابرار وامام الفجار »[١] .

واخيراً ذكر الطبري في حوادث ١٤٤ هـ : « وقد ذكر ان محمدا (بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب) كان يذكر ان ابا جعفر ممن بايع له ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطراب امر بني مروان مع سائر المعتزلة الذين كانوا معهم هنالك »[٢] .

والى جانب الطبري نرى صاحب الاغاني[٣] عند كلامه على احد الشعراء يصف والده بقوله « وكان والد الشاعر ايمن بن ضريم احد من اعتزل حرب الجمل وصفين ، وما بعدهما من احداث فلم يحضرها » .

ويذكر النوبختي ايضاً « ان الاحنف بن قيس التميمي اعتزل (الفتنة بين علي ومعاوية) بعد ذلك في خاصة قومه من بني تميم لا على التدين بالاعتزال ، لكن على طلب السلامة من القتل وذهاب المال وقال لقومه : اعتزلوا الفتنة اصلح لكم »[٤] .

اذاً فمن ملاحظة جميع هذه الاقوال نرى ان استعمال لفظة « معتزلة » قد اطلقت على جماعة من المسلمين لزموا دورهم ولم ينضموا الى احد الفريقين المتحاربين اي انهم لم ينغمسوا في حرب الجمل ولم يشتركوا في وقعة صفين ، وهي مسائل سياسية تدور حول قتل عثمان وقتلته والاقتصاص منهم ، وعلي واستحقاقه

---

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٧ .
٢ - المصدر السابق ج ٧ ص ٥١٧ .
٣ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ج ٢١ ص ١٠ .
٤ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٥ .

للخلافة ، ومعاوية وهل هو اولى بالخلافة من علي وهذا الانقسام بين الناس كان انقسام احزاب سياسية .

وان تسمية هذه الطائفة « بالمعتزلة » كانت تسمية سياسية لا دينية كما يشير النوبختي آنفاً (لا على التدين بالاعتزال) واقصد بالسياسة هنا ، لم تعتزل المسلمين لخلاف على امر من امور العقيدة ، وانما كان اعتزالهم للطرفين المتحاربين في سبيل الحكم . ولكن من الحق ان نقرر ان جميع المسائل في ذلك العصر كانت مصبوغة صبغة دينية فالحزب او الطائفة التي اطلق عليها في الصدر الاول للاسلام إسم المعتزلة كانت تمثل فكرة سياسية مصبوغة بالدين .

اما تسمية الفرقة الكلامية « المعتزلة » . بهذا الاسم فبعض كتب الفرق الاسلامية تعزو سبب هذه التسمية الى قول الحسن البصري لواصل بن عطاء حين كان الاختلاف على مرتكب الكبيرة وانه لا مؤمن ولا كافر بل هو فاسق « اعتزلنا »[1] .

اما عبد القادر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق فيورد سبباً آخر لهذه التسمية فهو يقول : « ان الحسن البصري لما طرد واصلاً من مجلسه واعتزله عند ساريه من سواري مسجد البصرة وانضم اليه عمرو بن عبيد قال الناس يومئذ فيهما : انهما قد اعتزلا قول الامة » وسمي اتباعهما من يومئذ معتزلة »[2] اي انهما خالفا الاقوال السابقة في مرتكب الكبيرة حين جعلا مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتي الكفر والايمان ، ذلك ان المرجئة كانت تقول انه مؤمن[3] والازارقة من الخوارج كانت تقول انه كافر[4] وكان الحسن البصري يقول انه منافق[5] .

---

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٥٧ .
٢ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٩٨ .
٣ - المصدر السابق : ص ٩٧ .
٤ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٠ .
٥ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٩٧ .

اما المسعودي في مروج الذهب[1] فله رأي آخر فهو يقول انهم سموا « بالمعتزلة » من الاعتزال وذلك لقولهم بان صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين فالمعتزلة على رأيه هم القائلو ن باعتزال صاحب الكبيرة . ويؤيد هذا المعنى ما ورد في تاج العروس[7] « من ان المعتزلة فرقة من القدرية زعموا انهم اعتزلوا فئتي الضلالة عندهم اي (اهل السنة والجماعة) والخوارج الذين يستعرضون الناس قتلاً » .

والآن وبعد ان استعرضنا هذه الاقوال التي تكلمت في سبب اطلاق لقب المعتزلة على هذه الفرقة فاننا نرجح قول المسعودي في ان هذه الطائفة قد سميت بالمعتزلة من الاعتزال وذلك لانها رفضت او اعتزلت عن صراع سياسي الا وهو الصراع بين معاوية وعلي ، وهو اعتزال سياسي لما يجري من احداث وصراعات في ذلك الوقت . وهنا نرى قاسماً مشتركاً يجمع بين معتزلي الصدر الاول ومعتزلة واصل بن عطاء وهو اتخاذ موقف حيادي من احداث العصر . وهذا ما ذهب اليه بعض المستشرقين الذين بحثوا في نشأة المعتزلة وآرائها .

فقدرأى المستشرق نلينو[2] ان هؤلاء المعتزلةالجدد اصحاب واصل انماهم الامتداد لحركة الزهاد الذين انشقوا على اطراف الصراع السياسي : علي واصحاب الجمل وعلي ومعاوية واعتزلوا هذاالصراع . فلقد اتخذ هؤلاء المعتزلون القدامى موقفاً محايداً من احداث ذلك الصراع واطرافه . ولما كان واصل واصحابه قد اتخذوا موقفاً وسطاً بين اهل السنة والخوارج من تقييم احداث الصراع بين علي وخصومه فلم يكفرهم جميعاً كما قال الخوارج ولم يصوبهم جميعاً كما انتهى الى ذلك اهل السنة وانما قال بفسق احد الفريقين دون تحديد[3] فكانهم بهذا قد اعتزلوا الفريقين المتحاربين

---

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١ .

٢ - نلينو : « بحوث في المعتزلة » المنشور في كتاب « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية » ترجمة الاستاذ عبد الرحمن بدوي ص ١٩٠ وما بعدها .

٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٠٠ .

كما اعتزل سلفهم الفريقين المتحاربين . فكانوا استمراراً وامتداداً لاسلافهم المعتزلين .

وينتهي بعد هذا الى انهم هم الذين سموا انفسهم بهذا الاسم وان تسميتهم به تسمية سياسية لا دينية ، وان اول مسألة في تاريخ هذه الفرقة او نقطة البدء في حياتهم هي مسألة مرتكب الكبيرة . هذا ما ذهب اليه هذا المستشرق بعد ان محص اراء غيره[1] من المستشرقين في تعليل هذه التسمية ، وبعد ان ابطلها جميعاً .

وقد كان للاوضاع السياسية والاجتماعية في ذلك العصر الاثر الكبير في نشأة المعتزلة المتكلمين واهم العوامل التي ادت الى قيام هذه الفرقة اربعة كما صنفها جار الله[2] وهي حلّ مشاكل الخلاف بين المسلمين ، الدفاع عن الدين الاسلامي ، اثر الديانات الاخرى ، درس الفلسفة .

فالمشكلة التي اثارت اكثر من سواها اهتمام المسلمين هي مشكلة مرتكبي الكبائر التي مادون الكفر . فقد كثر اقدام الناس على ارتكاب الكبائر بسبب اختلاف القادة على الخلافة وما جرّ وراءه من فتن ادت الى مصرع عثمان بن عفان ونشوب الحرب بين علي بن ابي طالب وبين اصحاب الجمل ثم بينه وبين معاوية . فتفرق المسلمون احزاباً وشيعاً وراحوا يكفرون بعضهم بعضاً . فقد اختلف موقف المسلمين من مرتكبي الكبائر فاهل السنة والجماعة كانوا يقولون في مرتكب الكبيرة التي ما دون الشرك من ملة الاسلام انه مؤمن « فلا يكفرون احداً من اهل القبلة بذنب يرتكبه ، كنحو الزنا والسرقة وما اشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر . والايمان ـ عندهم ـ هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر . . . »[3] .

---

١ ـ نلينو : بحوث في المعتزلة « يرى بعض المستشرقين ان السبب في تسميتهم هذا الاسم هو قولهم بمذهب القدر (ص ١٧٩) ويذهب بعضهم الى ان العلة في هذه التسمية هو التقوى والتعبد (ص ١٧٨) .

٢ ـ زهدي جار الله : المعتزلة ص ١٤ وما بعدها .

٣ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٤٧ .

اما الخوارج فقد رفضوا حكم اهل السنة في مرتكب الكبيرة وبالغوا في احكامهم فكفروا جميع من عداهم وقالوا « ان كل كبيرة كفر ، وان الدار دار كفر يعنون دار مخالفيهم ، وان كل مرتكب معصية كبيرة ففي النار خالداً مخلداً »[1] وهم « يكفرون معاوية وعمرو بن العاص وابا موسى الاشعري »[2] .

اما الطائفة الثالثة من المسلمين وهم المرجئة فقد اتخذوا موقفا سلبياً من الاحداث الجارية منهم لا يوافقون الخوارج في احكامهم بل تساهلوا في احكامهم على الجميع فجعلوا الايمان مجرد الاعتقاد بالله وبرسله وارجأوا الثواب والعقاب الى الله فكانوا يقولون : « ان صاحب الكبيرة من امة الاسلام مؤمن لما فيه من معرفته بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى ولمعرفته بان كل ما جاء من عند الله حق»[3].

وتعاظم الخلاف بين الفرق الاسلامية في هذا الصدد ، واحتدم الجدال ، وصارت تعقد في مساجد البصرة وغيرها حلقات المناظرة التي كان اهمها واشهرها حلقة الحسن البصري وقد حاول الحسن البصري ان يحل هذه المشكلة فقال : « ان مرتكب الكبيرة منافق »[4] وفي ذلك الجو ظهر المعتزلة الذين وقفوا موقفاً وسطا من الاحكام المطروحة فقالوا وعلى الاخص واصل واتباعه بالمنزلة بين المنزلتين اي « ان المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر بل يسمى فاسقاً »[5] .

وعلى هذا الرأي اضطر المعتزلة ان يطبقوا نظريتهم على المتنازعين على الخلافة فخاضوا غمار السياسة وبحثوا في امر خلافة ابي بكر وعمر وعلي ، هل خلافتهم صحيحة ؟ وايهم افضل . وقد حكى ابن ابي الحديد رأي المعتزلة في ذلك فقال : « اتفق شيوخنا كافة ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على ان بيعة ابي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وانها لم تكن عن نص وانما

---

١ ـ الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٧٠ .
٢ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٤ .
٣ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٩٨ .
٤ ـ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٩٧ .
٥ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

كانت بالاختيار . . . واختلفوا في التفضيل ، فقال قدماء البصريين كعمرو بن عبيد ، والنظام ، والجاحظ ، وثمامة بن الاشرس وهشام الغوطي ، وابي يعقوب الشحام ، وجماعة غيرهم : ان ابا بكر افضل من علي ، وهؤلاء يجعلون ترتيب الاربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، وقال البغداديون قاطبة ، قدماؤهم ومتأخروهم ، كبشر بن المعتمر ، وابن صبيح ، وجعفر بن مبشر ، وابي جعفر الاسكاني ، وابي الحسن الخياط ، وابي القاسم البلخي وتلامذته : ان عليا افضل من ابي بكر . . وذهب كثير من الشيوخ الى التوقف فيهما وهو قول واصل بن عطاء ، وابي الهذيل العلاف »[1] وهما - وان ذهبا الى الوقف بين علي وبين ابي بكر وعمر - قاطعان على تفضيله على عثمان اما موقف المعتزلة من عثمان وقتلته فقد وقف اكثر المعتزلة في الحكم في تلك المسألة فأبو الهذيل العلاف وهو احد زعماء المعتزلة يقول : « لا ندري ، اقتل عثمان ظالماً او مظلوماً »[2] .

فاذا انتقلنا الى الحروب التي كانت بين علي وخصومه ، نرى واصل بن عطاء وهو « شيخ المعتزلة وقديمها واول من اظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين »[3] يقف في الحكم على الفريقين المتنازعين في يوم الجمل ولا يدري ايهما فاسق . فيقول : « ان فرقة من الفريقين فسقه لا باعيانهم ، وانه لا يعرف الفسقه منهما ، واجاز ان يكون الفسقه من الفريقين عليا واتباعه كالحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر وابي ايوب الانصاري وسائر من كان مع علي يوم الجمل ، واجاز كون الفسقة من الفريقين عائشة وطلحة والزبير وسائر اصحاب الجمل »[4] .

كذلك فقد اختلف موقف بعض زعماء المعتزلة في القتال بين الصحابة فقال بعض المعتزلة « ابراهيم النظام » و« بشر بن المعتمر » في : ان عليا كان مصيبا في حروبه ، وان من قاتله كان على الخطأ ، فخطئوا طلحة والزبير وعائشة

---

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٧ .
٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ١٤٣ .
٣ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١
٤ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٠٠

ومعاوية » .[٣] . وقال « ضرار » و« ابو الهذيل » و« معمر » نعلم ان احدهما مصيب والاخر مخطىء ، فنحن نتولى كل واحد من الفريقين على الانفراد ، وانزلوا الفريقين منزلة المتلاعنين اللذين يعلمون ان احدهما مخطىء ، ولا يعلمون المخطىء منهما ، هذا قولهم في علي وطلحة والزبير وعائشة ، فاما معاوية فهم له مخطئون غير قائلين بامامته »[١] .

ولم يكتف المعتزلة بالحكم على المتحاربين على الخلافة فحسب بل تعرضوا لموضوع الامامة وشرط اختيار الامام فقد كانت المعتزلة تذهب الى « ان الامامة اختيار من الامة وذلك في ان الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وانما اختيار ذلك مفوض الى الامة تختار رجلاً منها ينفذ فيها احكامه سواء اكان قرشيا او غيره من اهل ملة الاسلام واهل العدالة والايمان ، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وذهبوا الى ان الامامة تجوز في قريش وغيرهم من الناس »[٢] . فالمعتزلة في قولهم بان اختيار الامام مفوض الى الامة يخالفون الشيعة الذي كانوا يعتبرون « ان الامامة لا تكون الا نصاً من الله ورسوله على عين الامام واسمه واشتهاره »[٣] واختلفت المعتزلة فيما بينهم في اشتراط ان يكون الامام من قريش ، فاشترطها بعضهم ولم يشترطها قوم منهم وقالوا : ان حديث « الأئمة من قريش » لم يكن متواتراً ، اذ لو تواتر لما ادعت الانصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل ان عمر كان يجوز امامة المولى فقد قال : « لو كان سالم ـ مولى حذيفة ـ حيا لوليته »[٤] وبالغ ضرار بن عمرو من المعتزلة ـ فقال : « اذا اجتمع قريشي ونبطي ولينا النبطي وتركنا القرشي لانه اقل عشيرة واقل عدداً فاذا عصى الله واردنا خلعه ، كانت شوكته اهون نظراً للاسلام »[٥] .

---

١ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ١٤٥
٢ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ١٤٥ والنوبختي : فرق الشيعة ص ١٣ .
٣ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .
٤ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٢
٥ ـ المصدر السابق : ج ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢
٦ ـ النوبختي : فرق الشيعة ص ١٠

وأما الاراء التي اجمع عليها المعتزلة فقد ذكرها المسعودي فقال : « وليس يستحق اسم الاعتزال الا بالاعتقاد بالاصول الخمسة وهي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والاسماء والاحكام وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ويضيف بعد ذلك فيقول : « ومن اعتقد في هذه الاصول الخمسة كان معتزلياً »[1] .

وقد كانت نظرتهم في توحيد الله نظرة في غاية السمو والرفقة فطبقوا قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ابدع تطبيق وفصلوه خير تفصيل وكانت كل نقطة تسلم الى التي تليها فيسيرون فيها من غير خوف من النتائج مهما كانت . متى اطمأنوا الى انهم يسايرون العقل ، فهم من الناحية العقلية جريئون ، يقررون ما يرشد اليه في شجاعة واقدام ، وهم امام النقل يسلمون ما يوافق منها البرهان العقلي ، ويؤولون ما يخالفه .[2] .

وهكذا نرى ان للمعتزلة امتيازات من بين فرق المتكلمين بحرية الرأي ، والاعتماد على العقل ، فهم دائماً يعتمدون على العقل وعلى الاقناع ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو من أهم مبادئهم ومن وسائل الاقناع العقلي لديهم . ولكن يبقى « للمعتزلة الفضل في انهم كانوا الاوائل في الاسلام الذين رفعوا العقل الى مرتبة ان يكون مصدراً لمعرفتهم الدينية ، بل هم اول من اعترف صراحة بقيمة الشك كباعث اول على المعرفة »[3] .

---

١ ـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩١ ـ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٢٨

٢ ـ احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

٣ ـ جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص ١١٨

الخاتمة

وهكذا نرى نشأة الفرق الاسلامية ، قد وجدت مع تكوين المجتمع الاسلامي ، واخذت تتشعب مع تطوره على مر العصور ، وكانت تتخذ اشكالاً متعددة . فتارة تظهر في جماعات دينية متزمتة ، واخرى في فرق متساهلة معتدلة ، وتارة في تجمعات اجتماعية او اقتصادية ناقمة ، او في جماعات طامحة للسلطة والحكم وطوراً في فئات موتورة ناقمة . على انها جميعاً كانت تستقي من نبع السياسية الذي لا ينضب ولكنه يغلف باشكال تناسب البيئة والعصر والميول السائدة ولذلك نرى انها وجوه متعددة لاحزاب سياسية . وكما ان المجتمع الاسلامي قد بني على اسس كان لكثير منها جذور في الجاهلية وحياة البداوة ، لذلك استمدت الحزبية السياسية غذاءها من العصبية القبلية التي كانت النواة الاولى لتلك الحزبية وما يتفرع عن تلك العصبية من غزو وثأر وولاء واحلاف وغير ذلك من المؤسسة القبلية .

فالمجتمع العربي قبل الاسلام كان مجتمعاً قبائلياً يقوم على الغزو والحروب المستمرة لاسباب اقتصادية واجتماعية . واذا ما قامت فيه تحالفات فهي نتيجة دوافع امنية او اقتصادية . وكان للعصبية اثرها الفعال في نفوس ابناء ذلك المجتمع . كذلك ففي المجتمع الاسلامي نراها تمتزج بالمشكلات التي نشأت في المجتمع الجديد وتتداخل في امور السلطة والسلطان والمصالح الشخصية والعائلية والاجتماعية التي كانت تصطبغ بصبغة دينية في كثير من الاحيان ، وما هي في الواقع الا امور سياسية تمحورت حول قضايا مهمة تتعلق بالخلافة ، والولاية ، وتوزيع المغانم ، وامتلاك زمام السلطة والقرابة وغيرها من امور الدين والدنيا . هذا الى جانب العناصر

الخارجية والمؤثرات الاعجمية التي دخلت المجتمع الجديد بعد الفتوحات الاسلامية .

على ان فكرة الحزبية ظهرت بشكل اوضح بعد تطور المجتمع الاسلامي نتيجة الاحداث والصراعات التي توالت عليه . ففي الفترة التي كان فيها الرسول المرجع الاول والاخير للأمور التي تعرض للمسلمين رأينا ان الجماعة الاسلامية كانت منقسمة في اتجاهين مختلفين : جماعة المهاجرين وجماعة الانصار . وكان لكل جماعة كيانها الخاص الذي تتمسك به وتسعى للمحافظة عليه .

وبعد وفاة الرسول برزت اتجاهات جديدة اتخذت اشكال احزاب ثلاثة هي : حزب الانصار وحزب المهاجرين وحزب بني هاشم . ثم اخذت هذه الاتجاهات الحزبية تتعدد وتشق لنفسها طرقا جديدة معتمدة على وسائل دينية احيانا ودنيوية في احيان اخرى . فالتنازع على خلافة الرسول كان في رأس التحالفات والتحركات التي غذت الاتجاهات الحزبية وكذلك خلال انتقال مقاليد الخلافة من خليفة الى آخر . وقد بلغت الحزبية ذروتها في ايام الخليفة الراشدي الثالث حيث الفتنة الكبرى وايام الخليفة الراشدي الرابع في معركتي الجمل وصفين حيث تبلورت معالم الحزبية السياسية وظهرت جلية في نشوء الاحزاب السياسية الثلاثة (حزب بني امية ـ حزب الخوارج ـ حزب الشيعة) . وكانت تلك الاحزاب الدعائم التي قامت على أساسها الفرق الاسلامية المتعددة .

ومهما يكن من أمر فانه كان لنشأة تلك الاتجاهات الحزبية وجهان : احدهما ايجابي يقوم على التنافس والتسابق بين اصحاب القضية ومن شأنه ان يدفع مفكري الاحزاب الى قدح زناد العقل وتأليف المجلدات الادبية والدينية والفلسفية لاثبات او دعم اتجاهاتهم المتعددة ، مما ترك لنا ارثا ادبياً وفكريا لا يفنى ، متعدد الاتجاهات والميول ويشكل غذاء فكريا للاجيال الناشئة .

والثاني سلبي يتمثل في اضعاف القوى بتشتتها وتوزعها في كل اتجاه ، اضف الى ذلك الخسائر المادية والبشرية والمعنوية التي تخلفها النزاعات والصدامات نتيجة اختلاف الاهواءوالاراء .

المصادر والمراجع

اولاً : المصادر الاولية

١ ـ القرآن الكريم

الاثير ـ ابن ـ (٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٨ م) علي بن احمد ابو الحسن .

٢ ـ الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٥٦ هـ)

٣ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة ـ طبعة دار الشعب) .

الازرقي (٢٢٣ هـ) محمد بن عبد الله ابو الوليد .

٤ ـ اخبار مكة (بيروت ١٩٦٤) .

الاشعري (٣٣٠ هـ) ابى الحسن علي بن اسماعيل .

٥ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م) الطبعة الثانية .

الاصفهاني (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٧ م) علي بن الحسين ابو الفرج .

٦ ـ الاغاني ٢١ جزءاً (بيروت ١٩٥٧ م) .

٧ ـ مقاتل الطالبيين (النجف ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م) .

البخاري (٢٥٦ هـ) محمد ابو عبد الله .

٨ ـ الجامع الصحيح ٩ اجزاء (ثلاث مجلدات) القاهرة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨) طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي صادر عن دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

البغدادي (٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م) عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ابو منصور .

٩ ـ كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ـ تحقيق محمد بدر ـ (القاهرة ـ لا تاريخ) .

البلاذري (٢٧٩ هـ) أحمد بن يحيى .

١٠ ـ فتوح البلدان (القاهرة ١٩٥٦ م) .

الجاحظ (٢٥٥ هـ ـ ٨٦٩ م) ابو عثمان عمرو بن بحر .

١١ ـ البيان والتبيين ٤اجزاء تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ـ الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م) .

الحديد ـ ابن ابي ـ (٦٥٥ هـ) عبد الحميد بن هبة الله .

١٢ ـ شرح نهج البلاغة ٢٠ جزءاً (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم) دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ (القاهرة ١٩٦٥ م) ـ الطبعة الثانية .

خلدون ـ ابن ـ (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م) عبد الرحمن .

١٣ ـ مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦٧ م) الطبعة الثالثة .

سعد ـ ابن ـ (٢٣٠ هـ ـ ٨٤٥ م) محمد بن سعد كاتب الواقدي .

١٤ ـ الطبقات الكبرى ٨ اجزاء (بيروت ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧) .

السمعاني (٥٦٢ هـ ـ ١١٦٦ م) الامام ابن سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور .

١٥ ـ الانساب (الهند ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م) الطبعة الاولى .

السيوطي (٩١١ هـ ـ ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن ابي بكر .

١٦ ـ تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٥٢ م) الطبعة الاولى .

الشهرستاني (٥٤٨ هـ ـ ١١٥٣ م) ابو الفتح محمد بن عبد الكريم .

١٧ ـ الملل والنحل ٣ اجزاء (القاهرة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٨ م) الطبعة الاولى
الطبري (٣١٠ هـ) محمد بن جرير ابو جعفر .
١٨ ـ تاريخ الرسل والملوك ٨ اجزاء تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٧١ م) .
١٩ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٠ جزءاً (القاهرة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م) ، الطبعة الثالثة .
عبد ربه ـ ابن ـ (٣٢٨ هـ) احمد ابو عمر .
٢٠ ـ العقد الفريد ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م) .
العبري ـ ابن (١٢٢٦ م ـ ١٢٨٦ م) غريغوريوس الملطي .
٢١ ـ تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨ م) .
علي بن ابي طالب .
٢٢ ـ نهج البلاغة ٣ اجزاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (مصر ـ مطبعة الاستقامة ـ لا تاريخ) .
قتيبة ـ ابن ـ (٢٧٦ هـ) محمد عبد الله بن مسلم
٢٣ ـ الامامة والسياسة جزءان في كتاب واحد (القاهرة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م) الطبعة الثانية .
القلقشندي (٨١٢ هـ ـ ١٤١٨ م) احمد بن علي ابي العباس .
٢٤ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشاء ـ القاهرة (الجزء الاول من ١٤ جزءاً) .
الكلبي (٢٠٤ هـ ـ ٨١٩ م) ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب .
٢٥ ـ كتاب الاصنام ، تحقيق احمد زكي باشا ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية .
ماجة ـ ابن ـ (٢٧٣ هـ) ابو عبد الله محمد بن يزيد .
٢٦ ـ سنن ابن ماجة (مصر ـ ١٩٠٥ م) .

الماوردي (٤٥٠ هـ - ١٠٥٧ م) ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري .

٢٧ - أدب الدنيا والدين . تحقيق مصطفى السقا (بيروت ١٩٧١) دار الكتب العلمية ، الطبعة الرابعة .

المبرد(٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) ابو العباس محمد بن يزيد .

٢٨ - الكامل في اللغة والادب جزءان (القاهرة ١٣٠٨ هـ) الطبعة الاولى .

المسعودي (٣٤٦ هـ) ابو الحسن علي بن الحسين .

٢٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءآن (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

المنقري : (٢١٢ هـ) نصر بن مزاحم .

٣٠ - وقعة صفين (القاهرة ١٣٨٢ هـ) .

النوبختي : (٢٣٢ هـ - ٨١٧ م) ابو محمد الحسن بن موسى .

٣١ - فرق الشيعة ، تحقيق هلموت ريتر - مطبعة الدولة اسطنبول ١٩٣١ .

هشام - ابن - (٢١٨ هـ- ٨٢٣ م) عبد الملك ابو محمد .

٣٢ - السيرة النبوية ٤ اجزاء (القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

الهمداني : (٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م) ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود .

٣٣ - صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨١ م) .

ياقوت :(٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) شهاب الدين ابو عبد الله الحموي الرومي .

٣٤ - معجم البلدان ٨ اجزاء (مصر ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٦ م) .

يوسف - ابو - (١٨٢ هـ) يعقوب بن ابراهيم .

٣٥ - كتاب الخراج (القاهرة ١٣٨٢ هـ) الطبعة الثالثة .

المراجع العربية الحديثة

امين : احمد

١ ـ فجر الاسلام (القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م) الطبعة السابعة .

٢ ـ ضحى الاسلام ج ٣ (بيروت ـ دار الكتاب العربي) الطبعة العاشرة .

الجابري : محمد عابد

٣ ـ العصبية والدولة (الدار البيضاء ١٩٧٩ م) دار النشر المغربية ـ الطبعة الثانية .

جار الله : زهدي

٤ ـ المعتزلة (القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م) .

حسن : ابراهيم حسن

٥ ـ تاريخ الاسلام السياسي ٤ اجزاء (القاهرة ١٩٦١ م) الطبعة السادسة .

حسين : طه

٦ ـ المجلد الرابع من الاعمال الكاملة : الخلفاء الراشدون (بيروت ١٩٧٣ م) .

٧ ـ المجلد الرابع من الاعمال الكاملة : في الادب والنقد (بيروت ١٩٧٣ م) .

الخالدي : طريف

٨ ـ دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي (بيروت ١٩٧٧ م) دار الطليعة ـ الطبعة الاولى .

الخضري : الشيخ محمد

٩ ـ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ٤ اجزاء (القاهرة ١٣٥٤ هـ) الطبعة الرابعة .

زيدان : جرجي

١٠ ـ تاريخ التمدن الاسلامي مجلدان (بيروت ١٩٦٧ م) .

الشايب : احمد

١١ ـ تاريخ الشعر السياسي (القاهرة١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م)الطبعة الخامسة .

عبد السلام : احمد

١٢ ـ دراسات في مصطلح السياسة عند العرب (تونس ١٩٧٨ م) الشركة التونسية للتوزيع .

علي : جواد

١٣ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ (بغداد ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٠ م) .

١٤ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ (بغداد ١٩٥٤ م) .

عمارة : محمد

١٥ ـ الخلافة ونشأة الاحزاب السياسية (بيروت ١٩٧٧ م) الطبعة الاولى .

القاضي : وداد

١٦ ـ الكيسانية في التاريخ والادب (بيروت ١٩٧٤ م) دار الثقافة .

قدورة : زاهية

١٧ ـ عائشة ام المؤمنين (بيروت ١٩٧٢ م) .

١٨ ـ الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي (بيروت ١٩٧٢ م) الطبعة الاولى .

١٩ ـ العصبية في المجتمع العربي نشأتها واثرها ـ محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤
السنة الثامنة ـ النشرة السادسة ـ نيسان .

النص : احسان

٢٠ ـ العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي دار اليقظة العربية .

المراجع الاجنبية المترجمة الى العربية

ارنولد : توماس

١ ـ الدعوة الى الاسلام (القاهرة ١٩٤٧ م) الطبعة الثانية ترجمة حسن ابـراهيم حسن وغيره :

٢ ـ الخلافة : دار اليقظة العربية .

ايف لاكوست

٣ ـ العلامة ابن خلدون (بيروت ١٩٧٤ م) ترجمة الدكتور ، ميشان سليان ـ دار ابن خلدون .

بر وكلمان ـ كار ل

٤ ـ تاريخ الشعـوب الاسـلامية (بـيروت ١٩٧٧ م) ترجمـة نبيه فارس ومنـير بعلبكي .

بلاشير : ريجنس

٥ ـ تاريخ الادب العربي ج ١ (دمشق ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م) تعريب الدكتور ابراهيم الكيلاني .

جولدتسيهر : اجناس

٦ ـ العقيدة والشريعة في الاسلام (القاهرة ١٩٤٦ م) ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى ـ عبد العزيز عبد الحق ـ علي حسن عبد القادر ـ الطبعة الاولى .

حتى : جبور

٧ ـ تاريخ العرب المطول (بيروت ١٩٧٤ م) ترجمة ـ حتى ـ جبور ـ جرجي .

دوزي : رينهارت

٨ ـ تاريخ مسلمي مسلمي اسبانيا ج ١ (القاهرة ١٩٦٣ م) ترجمة حسن حبشي جمال محرز ـ مختار العبادي .

فلهاوزن : يوليوس

٩ ـ تاريخ الدولة العربية (القاهرة ١٩٦٨ م) سلسلة الالف كتاب ـ ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة .

١٠ ـ أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام ـ الخوارج والشيعة (١٩٥٨ م) ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي .

فلوتن ـ فان

١١ ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية (القاهرة ١٩٦٥ م) ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد ابراهيم زكي .

نلينو ـ كارلو الفونسو

١٢ ـ بحوث في المعتزلة نشر ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (القاهرة ١٩٤٦ م) الطبعة الثانية ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .

الموسوعات والمعاجم

ابن منظور : ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم

١ ـ لسان العرب (بيروت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م) .

٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية .

٣ ـ الموسوعة الاسلامية .

ـ الزبيدي .

٤ ـ تاج العروس ٢٠ جزءاً (القاهرة ١٣٠٦) الطبعة الاولى .

المراجع الاجنبية

Dozy, Rein hart

1 — **Essai sur l'histoire de l'islamisme.** Amesterdam; librairie oriental, 1966.

Lammens, Henri.

2 — **L'Arabie occidentale avant l'Hegire.** Beyrouth, 1928.

3 — **La mecque à la veille de l'Hegire.** Beyrouth, 1924.

4 — **Le berceau de l'islam.** Rome, 1914.

5 — « **Le triumvirat, Aboû Bakr, Omar, Aboû obaide** ». Beyrouth, 1910.

Muir, William.

6 — **the Caliphate its- Rise- Decline and fall.** Edinburgh, 1915.

Smith, Roberston

7 — **Kinship and marriage in early arabia.** Beyrouth, united Publishers, 1973.

الفهـرس